إعجاز القرآن
٣

الصرفة والإنباء بالغيب

تأليف
دكتور حسين نصار
العميد السابق لكلية الآداب
جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

الصَّرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من العسير الكتابة الدقيقة عن الصرفة وجها من وجوه إعجاز القرآن ، يطمئن فيها الكاتب إلى أنه أحاط بكل ملامحها وأبعادها ، وأحسن التعبير عن أفكار أصحابها . وذلك لسببين :

أولهما ضياع الكتب التى أنتجها أنصار الصرفة ، مما يجعل الكاتب يضطر إلى الاعتماد على ما دوّنه خصومها ، أو غير أنصارها : على ما فى ذلك من إمكان الشطط .

وثانيها أنها أثارت ما لم يثره غيرها من الوجوه من كره ورفض وجدل وسوء فهم واتهام ، لمن قال بها ومن قبِلها ، بين من تعرضوا لها . وأكتفى للبرهنة على ذلك بقول أحد علماء الدين المحدثين ، عندما اضطر إلى الحديث عنها . قال د . على العمارى : «منذ بدأت أقرأ فى كتب الكلام وأنا أحمل البغض والحقد لهذا المذهب والقائلين به . وكنت أعجب أشد العجب أن يقول عالم من علماء المسلمين هذه القالة فى القرآن الكريم[1] » .

---

(١) حول ٥٤ .

الفصل الأول

القول بالصرفة

الأوائل

أقدم من ذكر العلماء أنه قال بالصرفة : الجَعْد بن دِرْهَم(١) (نحو ١١٨ / ٧٣٦) وواصل بن عطاء(٢) (٨٠ ـ ١٣١ / ٧٠٠ ـ ٧٤٨) وبِشْر بن غِيَاث المَرِيسى(٣) (بين ٢١٨ و٢٢٨/٨٣٣ و ٨٤٣) وأبو موسى عيسى بن صُبَيح المُردار(٤) (نحو ٢٢٦ / ٨٤١) .

أما الجعد فقال عنه د . على العمارى : ممن قال بأن الناس قادرون على مثل القرآن الجعد بن درهم ، مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، بل قال : إنهم قادرون على أحسن منه(٥) .

وأعتقد أن من نسب القول بالصرفة إلى واصل قد أخطأ ، لأن أحدا آخر لم يتفق معه . ولعله تأثر بما شاع من نسبة الصرفة إلى المعتزلة ، فنسبها واهما إلى شيخهم الأول .

وأما المريسى فقد ورد اسمه فى قول ياقوت بن عبد الله الرومى (٦٢٢ / ١٢٢٥) أن الصرفة كانت مذهبا لجماعة من المتكلمين والرافضة ، منهم بشر المريسى والشريف المرتضى(٦) .

وأما المردار فقد عزا إليه الشهرستانى أنه زعم أن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظما وبلاغة ، وأن أصحابه تبعوه على ذلك(٧) . وعقب الرافعى على ذلك بقوله : وهو جنون بلا ريب ، ليس أقبح منه إلا جنون الحسينية ــ أصحاب الحسين بن

---

(١) العمارى ٥٨ . البدرى ١٤٠ .
(٢) مقدمة حفنى شرف لبديع ابن أبى الإصبع ٣٥ .
(٣) ياقوت ٣ / ١٤٠ .
(٤) الرافعى ١٥١ . العمارى ٥٧ . البدرى ١٤٠ .
(٥) حول ٥٨ .
(٦) معجم ٣ / ١٤٠ .
(٧) الملل ٦٧ ـ ٨ . السمعانى ٥٢١ . الرافعى ١٥١ . أمين ٣ / ١٤٧ . العمارى ٥٧ .

القاسم العِيانى (٣٨٤ - ٤٠٤ / ٩٩٤ - ١٠١٣) . الذين يزعمون أن كتبهم وكلامهم أبلغ وأهدى وأبين من القرآن . وذلك زعم يكبر أن يكون جهلا وسخفا من قوم شاهدين على أنفسهم بالكفر ، وإنما هو بعض ما يزينه شيطان النفاق[1] .

ونفى على العمارى عن المردار ما عُزى إليه ، وذهب إلى أنه — يقينا — من تشنيعات خصوم المعتزلة ، وكم لهم من تشنيعات[2] .

وأعتقد أن الكتاب المحدثين خلطوا بين القول بخلق القرآن والقول بالصرفة ، فنسبوا الصرفة إلى جماعة من القدماء لم يُنقَل عنهم ذلك . أستأنس على ذلك بقول ابن الأثير فى معرض حديثه عن أحمد بن أبى دؤاد فى أحداث سنة ٢٤٠ : « كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة . أخذ ذلك من بشر المريسى ، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان ، وأخذه جهم من الجعد بن درهم ....»[3] . وأرى أن القول بالصرفة نشأ أول ما نشأ فى جيل النظام ، عنده وعند بشر المريسى والمردار .

النظام

ويصل بنا السير إلى إبراهيم بن سيار النظام (٢٣١ / ٨٤٥) فنعثر على فيض من الأقوال التى تصرح بكُنْه رأيه ، وتورد نصوص أقواله .

وأقدم من فعل ذلك فى شىء من التفصيل - إذا تجاهلنا ابن الراوندى الخصم اللدود للمعتزلة شيعة النظام - هو أبو القاسم عبد اللّه بن أحمد الكعبى البلخى (٢٧٣ — ٣١٩ / ٨٨٦ - ٩٣١) الذى أعلن أن الحجة فى القرآن - عند النظام - « ما فيه من الإخبار عن الغيوب لا النظم والتأليف ، لأن النظم - عنده - مقدور عليه ، لولا أن اللّه منع منه »[4] .

وأكد ذلك على بن إسماعيل الأشعرى (٢٦٠ - ٣٢٤ / ٨٧٤ - ٩٣٦) . حين روى أن النظام قال : الآية والأعجوبة فى القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب فأما التأليف

---

(١) إعجاز ١٥١ . (٢) حول ٥٨ .
(٣) الكامل ٧ / ٧٥ . وانظر اللباب فى الأنساب ١ / ٣١٧ .
(٤) فضل الاعتزال ٧٠ . وليد ٤٦ .

والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن اللّه منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم[١] .

وزاد على بن أحمد المعروف بابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ / ٩٩٤ - ١٠٦٤) هذا القول وضوحا بحكايته أن النظام قال في إعجاز القرآن : إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ، ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ، ومنع العرب عن الاهتمام به ، جبرا وتعجيزا . ولو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما[٢] .

واتسع كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى (٦٥١ / ١٢٥٣) فذكر أن النظام قال : إن اللّه صرف العرب عن معارضته ، وسلب علومهم . إذ نثرُهم ونظمهم لا يخفى ما فيه من الفوائد . ومن ثم قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[٣] وهذا على حدٍّ ما جعل اللّه سلْبَ زكريا النطق ثلاثة أيام - من غير علة — آيةً . أو أنهم لم يحيطوا به علما على ما قال تعالى : ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾[٤].

وحكى بدر الدين محمد بن عبد اللّه الزركشى (٧٤٥ — ٧٩٤ / ١٣٤٤ — ١٣٩٢) رأى النظام فروى أنه قال : إن اللّه صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم . وكان مقدورا لهم ، لكن عاقهم أمر خارجى ، فصار كسائر المعجزات [٥] .

وانفرد د. وليد قصاب بالقول بأن اللّه صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن ، أو القدرة على الإتيان بمثله [٦] ...

وكان للنظام رأى آخر فى القرآن ، على صلة بالرأى السابق ، غير أن خلط بعض الباحثين بين الرأيين أدى إلى شيء من الارتباك والخطأ . وقد صرح تلميذ النظام أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ / ٧٨٠ - ٨٦٩) أن هذا الرأى كان أحد أسباب تأليفه كتاب « نظم القرآن » حين قال فى رسالة « حجج النبوة » : « فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسى ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى ، فى الاحتجاج للقرآن ،

---

(١) مقالات ٢٢٥ . لاشين ٤٢٧ . الصباغ ٦١ السلامى ٥٩ . وليد ٣١٥ . أبو زيد ٧٧ .
(٢) الفصل ١ / ٧٢ . الشهرستانى ١ / ٥٨ . الملا ٢٤٥ .
(٣) سورة الأنفال ٣١ . (٤) سورة يونس ٣٩ . البرهان ٥٣ .
(٥) البرهان ٢ / ٩٣ . الإتقان ٢ / ١٣٦ . الملا ٢٤٥ . (٦) التراث ٣١٥ .

والرد على [كل] طعّان . فلم أدع فى مسألة لرافضى ، ولا لحديثى ، ولا لحشوى ، ولا لكافر مُبادٍ ، ولا لمنافق مقموع ، ولا لأصحاب النظام ، ولمن نجمَ بعد النظام ، ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة » .

ووضح فخر الدين محمد بن عمر الرازى (٥٤٤ ـ ٦٠٦ / ١١٥٠ ـ ١٢١٠) هذا الرأى حين نسب إلى النظام أنه قال : ما أنزل اللّه القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة ، لبيان الأحكام من الحلال والحرام . إنما لم يعارضه العرب لأن اللّه سلب علومهم به ، وصرفهم عن ذلك[١] .

وقد نقل عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن الخياط (نحو ٣٠٠ / ٩١٢) هذا الرأى عن أحمد بن يحيى الراوندى (٢٩٨ / ٩١٠) الذى كان خصما للمعتزلة ، وشنع عليهم فى كتاب سماه « فضائح المعتزلة » نقله عنه منسوبا للنظام ، من أجل التشنيع وتضخيم الأمر . ثم رد ابن الخياط عليه بتوضيح موقف النظام . وأعلن أن القرآن ـ عنده ـ حجة للنبى على نبوته من عدة وجوه ، مثل ما فيه من الإخبار عن الغيوب[٢] .

وتنبه د. منير سلطان ـ بحق ـ إلى أن دفاع ابن الخياط لم يتعرض إلا لرأى النظام فى الإعجاز بالإخبار بالغيب ، وأغفل الصرفة[٣] .

وأعلن د. محمد عبد الهادى أبو ريدة أن ما أورده الكُتاب للنظام رأيان لا رأى واحد[٤] ، وإن كانا وثيقى الصلة .

ونخلص إلى تعريف الصرفة عنده بأن اللّه أذهل العرب ، وصرف عنهم الدواعى التى تدفعهم إلى الاهتمام بمعارضته ، فلم يفعلوا .

أما قول الرازى والزملكانى ومن اتبعهما : إن الصرفة عند النظام تستند فيما تستند إلى سلب العرب علومهم ، فأخشى أن يكون خطأ ، جاء من المزج بين مفهوم الصرفة عند النظام ومفهومها عند الشريف المرتضى ، وما أتى به د. وليد قصاب خلط فيه أقوال النظام وأقوال الجاحظ .

والتفت المحدثون إلى موقع النظام بين المؤمنين بالصرفة :

---

(١) رسائل الجاحظ للسندوبى ١٤٨ . سلام ٧٠ . فقيهى ١٤١ . لاشين ٤٢٧ . أبو زهرة ٧٨ . وليد ٤٦ ـ ٧ .
(٢) نهاية الإيجاز ٥ . الحمصى ٥٤ . البدرى ١٥٠ .
(٣) الانتصار ٢٨ . الملا ٢٤٢ . منير ٥١ .
(٤) إعجاز ٥١ .

فجاهر الرافعى بأنه هو الذى بالغ فى القول بها حتى عُرفت به[١] .

وذكر على العمارى أن هذا المذهب ينسب إلى هذا العالم المعتزلى الكبير فلا نجد كتابا ينسبه إلا نسبه للنظام ، على أنه أول من قال به ، وناضل دونه ، حتى إن الخاطر لينصرف عند ذكره إلى النظام . ثم تساءل : ولكن هل كان أول من قال به حقا ؟ ثم أجاب : إنه ـ على ما فهمه العلماء ـ ليس من ابتداعه ، وإنما جرى الكلام به على ألسنة قوم من قبله ، من أشهرهم عيسى بن صبيح المردار[٢] .

وصرح محمد أبو زهرة بأنه أول من جاهر به ، ودعا إليه ، ولاحَى عنه ، كأنه مسألة من مسائل علم الكلام . واستطرد : نقول : إنه أول من جهر به ، ولا نقول : أول من فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهى تتكون فى خلاياها ، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر ويجاهر بها [٣] .

ووصفه عبد الكريم الخطيب بأنه أول من فتح الطريق إلى هذا القول[٤] .

وقال محمد بن سعد الدبل : إنه أول من قال بالصرفه[٥] .

أتباع النظام

اكتفى الأشعرى بالقول بأن هشام بن عمرو الفوطى (٢٢٦ / ٨٤١) وعباد بن سليمان الضمرى (حدود ٢٥٠ / ٨٦٤) اتفقا مع النظام فى القول بأن القرآن ليس حجة للنبى ، لأنه عَرَض ، والعرض لا يدل على النبوة [٦] .

ووضع أبو الحسين محمد بن أحمد الملطى الشافعى (٣٧٧ / ٩٨٧) هشاما فى تلاميذ النظام ، وعبادا فى تلاميذ هشام [٧] .

---

(١) إعجاز ١٦٢ . البدرى ١٤٥ . العمارى ٥٨ .
(٢) حول ٥٧ . البدرى ١٤٠ .
(٣) المعجزة ٧٨ . خلف اللّه ٢٣٨ .
(٤) إعجاز ٣٦٤ .
(٥) النظم ٣٠ عطا ٢٣٨ . وليد ٣١٥ . أبو زيد ٧٧ ، ٢٦٣ .
(٦) مقالات ٢٢٥ ـ ٦ . الباقلانى ٦٥ . أبو زيد ٢٦٣ ـ ٤ .
(٧) التنبيه ٣٩ .

وكان الباقلانى هو الذى صرح بأن النظام وعبادا وهشاما اتفقوا فى القول بأن نظم القرآن ليس معجزا ، وأنه تمكن معارضته ، وإنما صُرف العرب عنه ضربا من الصرف[١] .

وذكر البغدادى عدة آراء للنظام ثم قال : وإنما تبعه فى ضلالته شرذمة من القدرية ، كالأسوارى وابن خابط وفضل الحدثى والجاحظ ، مع مخالفة كل واحد منهم له فى بعض ضلالاته ، وزيادة بعضهم عليه فيها . وإعجاب هؤلاء النفر اليسير (القليل) به كإعجاب الجُعَل بدُحْروجته[٢] .

ونسب يحيى بن حمزة العلوى اليمنى (٦٦٩ — ٧٤٥ / ١٢٧٠ — ١٣٤٤) مذهب الصرفة إلى النظام وأبى إسحاق النصيبى أستاذ الشريف المرتضى كليهما[٣] .

وعدّت د. عائشة عبد الرحمن النظام وهشاما وعبادا من متقدمى شيوخ المعتزلة القائلين بالصرفة[٤] .

وذكر د. عمر الملاحويش أن رأى النظام أحدث صدى عند المسلمين ، حيث كان موضع نقاش بينهم . فمنهم من رفضه ، وهم أغلب جماعة المسلمين . ومنهم من أيده وهم المردارية . ومنهم من قبله بتحفظ كالأسوارى وابن خابط وفضل الحدثى والجاحظ[٥] .

وذكر د. وليد قصاب أنه لم يشايع النظام على رأيه إلا عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى المردار وعباد وهشام ومن ذكرهم البغدادى[٦] .

---

(١) إعجاز ٦٥ .
(٢) الفرق ١٣٢ . الجعل : نوع من الخنافس . ودحروجته : فضلاته التى يكورها ويدحرجها .
(٣) الطراز ٣ / ٣٩١ .
(٤) الإعجاز ٧٢ .
(٥) تطور ٢٤٦ .
(٦) التراث ٤٧ ، ٣١٥ .

رأينا البغدادى يضع أبا عثمان عمـرو بـن بحـر الجـاحظ فيمـن اتبـع النظـام فـى القـول بالصرفة من تلاميذه . وهو قول لم يتيسر لأحد من المعجبين بالأديب الكبير والمدافعين عنه أن ينكره ، لأنه هو نفسه أقرّ به حين قـال : « ومثـل ذلـك مـا رفـع [اللّـه] مـن أوهـام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن ، بعد أن تحداهم الرسول بنظمه . ولذلـك لم نجد أحدا طمع فيه . ولو طمع لتكلفه . ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بـأمر فيـه أدنـى شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النســاء ؛ ولألقـى ذلك للمسلمين عملا ؛ ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ؛ ولكثر القيـل والقـال : فقد رأيتَ أصحاب مسيلمة ... إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلـك الكـلام ، الـذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه ، وأخذ بعضه وتعاطى أن يقاربه . فكان للّه ذلك التدبير ، الذى لا يبلغه العباد ، ولو اجتمعوا له»[1] .

ولكن هذا القول الصريح اصطدم مع أقوال صريحة أخرى ، تختلف معـه فـى الدلالـة ، وتتفق فى الصدور عن الجاحظ : فدفع هذا الكتّاب إلى أن يسلكوا سبلا شتى فـى محاولـة معرفة الموقف الحق للرجل ، وتبرير الأقوال المتعارضة .

فأورد أبو بكر عبد القاهر بن عبـد الرحمـن الجرجـانى (٤٧١ / ١٠٧٨) خـبرا يـدل على أنه كان يرى الإعجاز فى ألفاظ القرآن وصياغتها . فقـد ذكـر أنـه قـال فـى كتـاب «النبوة » فى أثناء حديثه عن إعجاز القرآن : ولو أن رجلا قرأ على رجل مـن خطبـائهم وبلغائهم سورة واحدة ، قصيرة أو طويلة ، لتبين لـه فـى نظامهـا ومخرجهـا ، مـن لفظهـا وطابعها ، أنه عاجز عن مثلها . ولو تُحدِّى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها [2] .

---

(١) الحيوان ٤ / ٨٩ . الرافعى ١٦٥ . الحمصى ٥٦ . الخطيـب ٣٦٨ . الملا ١٦٢ لاشين ٤٣٦ . العمارى ٦٦ ، ٦٨ . عتر ٢١٧ . منير ٥٨ . البدرى ١٤٧ . أبو موسى ٣٦٢ . وليد ٧٠ . أبـو زيـد ٢٦٧ .

(٢) دلائل ٢٥١ ، ٣٨٩ . وانظر « حجج النبوة » على هامش « الكامل » للمبرد ١ / ٢٩١ .

واتهم الرافعى الجاحظ بكثرة الاضطراب . وأعلن أنه لم يَسْلم من القول بالصرفة ، غير أنه أخفاها وأومأ إليها عن عُرُض ، على الرغم أن رأيه فى الإعجاز ـ عند الرافعى ـ كرأى أهل العربية ، وهو أن القرآن فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يُعهَد مثلها .

ثم وقف حائرا فى تعليل موقفه بين أحد الرأيين التاليين :

ـ قد يكون استرسل بما قال عن الصرفة لما فى نفسه من أثر أستاذه ، وهو شىء ينزل على حكم الملابسة ، ويعترى أكثر الناس إلا من تنبَّه له أو نُبِّه عليه .

ـ أو يكون ناقلا[١] .

وأورد نعيم الحمصى رأيى الجاحظ . واستدل على القول بالصرفة بالنص الذى أوردته آنفا ، وعلى القول بالنظم بقوله فى معرض رده على الدهرين الذين لا يؤمنون بالتوحيد : « فلم يبق له [أى للدهرى] إلا أن يسألنا عن الأصل الذى دعا إلى التوحيد وإلى تثبيت الرسل . وفى كتابنا المنزل ، الذى يدلنا على أنه صِدْقٌ : نظمُه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد ـ مع ما سوى ذلك .. »[٢] . كما استدل عليه بقول آخر للجاحظ ، ذكر فيه أنه ألف كتابا فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وكتابا آخر سماه « الحجة فى تثبيت النبوة » مما يدل على رده على بعض المعتزلة الذين ادعوا أن فصاحة القرآن غير معجزة ، وعلى تعرضه لعدة مسائل كلامية كان المعتزلة يعالجونها[٣].

ثم تساءل الحمصى : هل قال الجاحظ بالصرفة حين كان لا يزال متأثرا بآراء أستاذه النظام ، وبالنظم حين استقل بنفسه ، أو أنه جمع بين الرأيين معا ؟ ثم استبعد أن يكون قد قال بالرأيين معا ، فى وقت واحد ، لما نعرفه عنه من قوة التفكير ووضوح الحجة ، لأن الرأيين متناقضان[٤] .

وفرق د. مصطفى الصاوى الجوينى بين مفهوم النظام والجاحظ للصرفة . فذكر أن النظام كان يرى قدرة المنشئين على أن يصوغوا مثل القرآن ، وأن الإعجاز فى صرف اللّه لهم عن هذا الصنيع . أما الجاحظ فرأى أن القرآن يصرف أطماع البلغاء عن الإتيان بمثله،

---

(١) إعجاز ١٦٤ ـ ٥ . عتر ٢١٧ ـ ٨ . البدرى ١٤٨ . أبو موسى ٣٦٠ .
(٢) الحيوان ٤ / ٩ . فكرة ٥٦ .
(٣) الحيوان ١ / ٩ . فكرة ٥٦ .
(٤) فكرة ٥٦ ـ ٧ .

ليأسهم من استواء كلامهم على مرتبة عالية لا تتخلف من الجودة ، كما هو شأن الأسلوب القرآنى القاطع للأطماع[١] .

ورأى محمد أبو زهرة أن الجاحظ لم يسلك مسلك المجادل المحاور فى الرد على شيخه، وإنما رد عليه بالعمل . فكان أول من كتب فى إعجاز القرآن من الناحية البيانية ، ليكون الرد على الصرفة ببيان الإعجاز الذاتى للقرآن[٢] .

واستغرب عبد الكريم الخطيب عدم احتفاظ التاريخ للجاحظ برسالة أو كتاب فى إعجاز القرآن ، مع أنه عرض لكثير من الموضوعات التى لا يلتفت إليها أكثر الكتاب . فعالجها هو وبسط القول فيها . واستبعد ألا يكون له رسالة فى ذلك ذهبت فيما ذهب بيد الضياع من كتبه .

وجهر بأن له فى بعض كتبه ورسائله كلمات منثورة فى الإعجاز ، لا تصرح فى جلاء بوجهه ، ولكن يمكن الاستدلال على رأيه منها . ثم أتى بنصوص مطولة له ، استقاها من رسالة « حجج النبوة » و « إتقان السيوطى » . وخلص منها إلى إيمان الجاحظ بإعجاز القرآن ، وبأن النظم هو وجه الإعجاز[٣] .

وعلى الرغم من ذلك اعترف الخطيب بأن الجاحظ قال بالصرفة .

وفسر هذا الموقف من الجاحظ بأنه أتى بهذا الرأى فى معرض الاحتجاج على الذين يشكّكون أن يكون سليمان ـ عليه السلام ـ قد وهب اللّه له ملكا لم يكن لأحد من بعده ، وأن الجن كانت من بعض ما يملك ، ثم يجهل ملكة سبأ أو ملكها ، حتى دله عليهما الهدهد . فكيف يصح هذا ؟ وكان رد الجاحظ عليهم بإيراد أمثلة عدها من الصرفة ، جعل منها الصرفة القرآنية[٤] .

ونفى الخطيب أن يكون الجاحظ قال بالصرفة ، عن تقليد ومتابعة لشيخه ، وأعلن أنه قال بها عن نظر وموازنة ومراجعة ثم اقتناع ، بعد أن أعياه الوقوع على الضوابط الدقيقة التى يضبط بها وجه الإعجاز ، ويكشف عن أسراره[٥] .

---

(١) منهج ٢٠٧ . طه الحاجرى : الجاحظ ٣٢٣ .
(٢) المعجزة ٧٨ . (٣) إعجاز ١٥٧ ـ ٦٥ . الإتقان ٢ / ١٣٦ .
(٤) إعجاز ٣٦٧ ـ ٨ . لاشين ٤٣٥ ـ ٦ . الحيوان ٤ / ٨٥ ـ ٩ .
(٥) إعجاز ١٧٦ ـ ٨ . لاشين ٤٣٦ . منير ٢٠٣ . وليد ٣٢٠ .

وذكر أن الصرفة التى أعلنها الجاحظ ليست مطلقة ، وإنما هى صرفة أعلن الجاحظ أنها حمت القرآن من أن يتكلف لمعارضته بعض المتكلفين ، فيوقع فى نفوس الأغرار والجهلة الاضطراب ، ويشوش على القرآن .

وعلى الرغم من ذلك ، لم يقبل الخطيب هذا القول على علاته من الجاحظ ، وعده إحدى مغالطاته . ولو أراد الجاحظ أن ينقضه لنقضه بغمزة من قلمه ، دون أن يكد ذهنه أو يطلق العنان لقلمه(١) .

وأخيرا صرح الخطيب أن رأى الجاحظ فى الصرفة هو الذى جعل لرأى النظام مكانا بين الآراء ، ولولاه لما التفت الناس إلى رأى النظام هذا الالتفات ، ولما عاش فى الناس : ينقضونه حينا ، ويقبلونه آخر(٢) .

وانفرد د. عمر الملاحويش عن بقية الدارسين بالإصرار على أن الجاحظ من معتنقى الصرفة وحدها . فصرح أنه ـ بعد استقصاء ما عند الجاحظ مما يتعلق بالإعجاز من قريب أو بعيد ـ ظهر له أن الجاحظ تأثر بأستاذه ، فراح يمهد للقارئ ـ كعادته ـ ليستدرجه إلى الصرفة . وأرجع هذا التحفظ إلى رد الفعل الذى أحدثه رأى النظام فى المجتمع الإسلامى. فلم يشأ الجاحظ أن يكون هدفا للتيار الذى تعرض له أستاذه . ولذلك أخذ يدور حوله فى أول الأمر ، وعندما أعيته الحيلة أن يجد وجها يرتضيه للإعجاز ، جهر برأى النظام فقال بالصرفة (٣) .

ورد على أقوال عبد الكريم الخطيب بأنه حمّل الجاحظ ما ليس له ، لأنه لم يره يوما قال بالإعجاز البيانى ، وإنما كان يشيد ببيان القرآن وبلاغته وجمال نظمه . ولا يعنى هذا أن الجاحظ كان يرى أن وجه الإعجاز من هذه الناحية ؛ هذا من جهه . ومن جهة أخرى : إذا سلمنا أن الجاحظ قد نوه بذلك ثم عاد فقال بالصرفة صراحة ، يكون قد نفى عنه كل احتمال عن اعتقاده بأن القرآن معجز بنظمه ، لأن هذا الرأى لا يتفق والقول بالصرفة ، وبخاصة أنه قال بها مطلقة و لم يقيدها بشىء .

---

(١) إعجاز ٣٦٩ .   (٢) إعجاز ١٧٧ .   (٣) تطور ٢٥٦

ولو أن الجاحظ كان قد قبل رأى النظام بتصرف ، لتعرض هو الآخر لنقد العلماء الذين تناولوا رأى النظام . ولكن تبعيته لمبدأ الاعتزال أبت عليه إلا أن يسير وراء أستاذه ، ولذلك لم يتعرض أحد له بالنقد اكتفاء بنقد الشيخ[١] .

وخلاصة القول عند عمر الملاحويش : إنه لا يبرئ الجاحظ من القول بالصرفة فى إعجاز القرآن ، غير أنه ـ من ناحية أخرى ـ لا ينكر على الجاحظ إعجابه بنظم القرآن ، وإشادته بذلك فى مواضع كثيرة من مؤلفاته ، فأفاد منه من جاء بعده فى هذه الناحية ، وبخاصة عبد القاهر الجرجانى الذى تأثر بآراء الجاحظ ، وبنى عليها نظرياته فى البلاغة وإعجاز القرآن[٢] .

ولاحظ على العمارى أن الجاحظ لم يورد فى نصه الذى بدأنا به الحديث عنه شيئا عن الإعجاز ، ولا ذكر لفظه . فمن أين جاء للعلماء أن المراد بالصرف الصرف عن الإتيان بمثل القرآن ، فيكون هو وجه الإعجاز .

ومهما يكن من شيء ، فهو يرى المسألة ـ عند الجاحظ ـ صريحة واضحة : فما كان العرب ليستطيعوا أن يقولوا شيئا فى مرتبة القرآن . وإنما كان فى مقدورهم أن يقولوا كلاما يشتبه فيه الأمر على الأعراب وأشباههم . لقد عجزوا عن الأول — القرآن — لأنه فوق طاقتهم . ومحال أن يرى الجاحظ أن بلاغة النبى ﷺ فوق مستواهم ، ثم لا يرى بلاغة القرآن كذلك . وصرفوا عن الثانى — المشتبه — لئلا يكون القرأن موضع جدل ومحاكمة[٣].

واعلن د. حسن ضياء الدين عتر أنه يبدو له واضحا أن الجاحظ لم يصل به الشذوذ إلى أن ينكر إعجاز القرآن . واستشهد على ذلك بأقواله البليغة التى لم تزل موطن إكبار علمائنا وكتابنا واستشهادهم ، وبما اقتبسه الجرجانى من « حجج النبوة » وبتأليفه « نظم القرآن » . ووصف هذين الكتابين بأنهما علميان مختصان من أجلّ مؤلفات الجاحظ ، وأنهما أفادا ـ بصراحة لا تحتمل التأويل ـ أن الإعجاز وصف ذاتى منبعث من خصائص القرآن ومزاياه . ويدل هذا على أن الجاحظ كان يعتنق مذهب الإعجاز الذاتى للقرآن .

---

(١) تطور ٢٦٣ ـ ٤ .　(٢) إعجاز ١٧٧ .　(٣) حول ٦٧ ـ ٩ .

أما ما نسب إليه من القول بالصرفة ، فلا يعدو أن يكون قولا آخر جمع فيه بين القول بالإعجاز الذاتى والإعجاز بالصرفة فى آن واحد[١] .

وذهب د. منير سلطان إلى أن الصرفة ــ عند الجاحظ ــ وجه من وجوه الإعجاز ، قال بها الجاحظ بعد أن جرت تجربة المعارضة وفشلت ، واعترف العرب بالعجز ، وشهدوا أن القرآن معجز بنظمه . وهنا يأتى لطف الله بالناس ، من أن يطمع فى القرآن طامع فيتكلفه ويشغب بما أتى به . فيتعلق به البسطاء ، وتكثر المحاكمة ، وتنتشر البلبلة بين الناس . فصرف أوهام المشاغبين عن العبث[٢] .

ومال عمر السلامى إلى أن قول الجاحظ بالصرفة قد يكون من باب الاستسلام لسحر القرآن ، وقوة بيانه ، وعجز الجاحظ عن الإفصاح بذلك ، وهى حال يصل إليها كثير من كبار العلماء عند إدراك حلاوة القرآن وإعجازه عن طريق الذوق الشخصى أمثال الرمانى والخفاجى والأصبهانى[٣] .

وتقدم د. وليد قصاب بالسؤال : لماذا لجأ العرب إلى القتال ، ولم يلجؤوا إلى معارضة القرآن ؟

ثم ذكر أن الجاحظ قدم افتراضين للإجابة :

أحدهما : أن يكونوا سكتوا عن المعارضة وهم قادرون عليها . وهو احتمال لا مسوغ له عقلا .

والثانى : أن يكونوا قد أحسوا بتفوق القرآن فسكتوا حتى لا ينكشف أمرهم . ورأى أنه الاحتمال المقبول أكثر من غيره . ومع ذلك ، فكأنما أحس الجاحظ أنه غير كاف إلى درجة اليقين ، فدفعه ذلك إلى أن يلتمس تعليلا آخر ، وقد وجده فى الصرفة .

وظن أن هذا سبب ذيوع الحديث عن الصرفة فى البيئة الاعتزالية[٤] .

ووافق أحمد أبو زيد على التفرقة بين تصور النظام وتصور الجاحظ للصرفة . ثم أعلن أن هذه التفرقة فاتت مصطفى صادق الرافعى ود . نعيم الحمصى ، فاتّهما الجاحظ بالتناقض والاضطراب ، مع أن من القدماء من نبه على الفرق مثل القاضى عبد الجبار ، ومن المحدثين من فعل ذلك مثل د. طه الحاجرى ود. مصطفى الصاوى الجوينى[٥] .

---

(١) بينات ٢١٨ - ٩ .
(٢) إعجاز ٥٩ ، ٢٠٢. قمحاوى ٩٨. وليد ٧٠، ٣٢٠ .
(٣) الإعجاز ٥٨ - ٩ .
(٤) التراث ٣١٦ .
(٥) المنحى ٢٦٨ - ٩ .

الأصبهانى

وورووا أن أبا مسلم محمد بن بحر الأصبهانى (٢٥٤ - ٣٢٢ / ٨٦٨ - ٩٣٤) قال فى تفسيره : « اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين :

أحدهما إعجاز يتعلق بنفسه

والثانى بصرف الناس عن معارضته ...

وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضا إذا اعتُبِر . وذلك أنه مامن صناعة كانت محمودة أو مذمومة إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات فعلية بدليل أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف ، فينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه فى مباشرتها ، فيقبلها بانشراح صدر ، ويزاولها بقلبه .

فلما دعا اللّه أهل البلاغة والخطابة — الذين يهيمون فى كل واد من المعانى بسلاطة لسانهم - إلى معارضة القرآن ، وعجزوا عن الإتيان بمثله ، و لم يقصدوا لمعارضته ؛ لم يخفَ على ذوى البلاغة أن صارفا إلاهيا صرفهم عن ذلك .

وأىّ إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزوا — فى الظاهر — عن معارضة مصروفة - فى الباطن - عنها[1] .

فارتضى القول بالصرفة وجها ، كما ارتضى القول بالفصاحة ، ورآهما صالحين معا . وسيسير كثيرون على هذا الدرب .

---

(١) معترك السيوطى ١ / ٤ ، ٦ ، ٢٨ . وانظر ابن حزم ١ / ٧٢ .

الأشعرى

نسب ابن حزم إلى أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (٢٦٠ ـ ٣٢٤ / ٨٧٤ ـ ٩٣٦) قولين متعارضين فى الإعجاز . فقد ذكر أن أهل الكلام فيه على خمسة أنحاء ، ثم قال عن النحو الأول : قول روى عن الأشعرى ، وهو أن المعجز الذى يتحدى الناس بالمجىء بمثله هو الأول ، الذى لم يزل مع اللّه ، ولم يفارقه قط ، ولا أُنزل إلينا ، ولا سمعناه . ثم عقب على هذا القول بأنه كلام فى غاية النقصان والبطلان ، إذ من المحال أن يكلف أحد أن يجىء بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه . ويلزمه هذا بأن المسموع المتلو عندنا ليس معجزا بل مقدورا عليه ، أو على مثله . وعقب ابن حزم قائلا : وهذا كفر مجرد ، ولاخلاف فيه ، وأيضا هو خلاف القرآن لأن اللّه ألزمهم بسورة أو عشر منه .

وقال عن الرأى الثانى للأشعرى : وله قول آخر كقول المسلمين : إن المتلو هو المعجز[١] .

ويبدو أن القاضى عياض فهم من الرأى الأول أن الأشعرى من القائلين بالصرفة ، قال: وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه ـ أى القرآن ـ مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويُقْدرهم اللّه عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، إذ منعهم اللّه وعَجّزهم عنه. وقال بذلك جماعة من أصحابه أيضا[٢].

وأحسب أن تصريح ابن حزم (قول روى عن الأشعرى) يدل على شىء من الشك يخامره فى صحة النسبة .

---

(١) الفصل ـ طبع شركة مكتبات عكاظ ـ ٣ / ٢٥ .
(٢) الشفا ١ / ٥١٥ ـ ٧ .

الرمانـــى

افتتح على بن عيسى الرمانى (٢٩٦ ـ ٣٨٤ / ٩٠٨ ـ ٩٩٤) كتابه بأن وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات ، جعل الثالثة منها الصرفة . ثم حاول أن يبينهـا فـى ختامه فقال : « وأما الصرفة فهى صرف الهمم عن المعارضـة . وعلـى ذلـك كـان يعتمـد بعض أهل العلم فى أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة . وذلـك خـارج عن العادة كخروج سائر المعجـزات التى دلـت علـى النبـوة ، وهـذا عندنـا أحـد وجـوه الإعجاز التى يظهر منها للعقول[١] » .

وعقب د. عمر الملاحويش على كلام الرمانى ، فأعلن أنه يرى أن الصرفـة لا تنسـجم مع ما قرره الرمانى من وجوه الإعجاز ، لأنها تنقض كـل مـا بنـاه مـن الوجـوه الأخـرى للإعجاز . وربما ألا يكون مبالغـا إذا قـال : إن الرمـانى لم يقـل بالصرفـة إلا لأن رؤوس المعتزلة قالوا بها . فلم يرد أن يخرج عليهم ، وهو واحد منهم . ولذلك نراه بعد أن فصّـل الكلام عن بلاغة القرآن وقرر أنها خرقت العادة ، ذكر الصرفة دون تعليـق ، ونسـبها إلى بعض أهل العلم كأنما يريد أن يتبرأ هو منها[٢] .

واتفق د. حســن ضيـاء الديـن عـتر معـه ، ثـم قـال : يبـدو لنـا أن الرمـانى والجـاحظ وغيرهما ، أوردهم هذا المورد أنهم لاحظوا أن بلغاء العرب لم يتمحلوا معارضة القـرآن ، ولو على سبيل المماراة بالباطل[٣] .

وذهب د. منير سلطان إلى أننا إذا تدبرنا رأى الرمانى ، وجدناه يدور فى الدائرة التـى دار فيها رأى الجاحظ .

واتفق معه د. وليد قصاب ، وأعلن أن مفهوم الجـاحظ والرمـانى لا يقـدح فـى بلاغـة القرآن ، بل يقر بتفوقه وإعجازه ، ويحس أن ما جاء به خارج عن طوق البشر[٤] .

---

(١) النكـت ٦٩ ، ١٠١ . الإتقـان ٢ / ١٤١ . الحمصـى ٦٣ . فقيهـى ١٨١ . عائشـة ٧٦ . المـلا ٢٧٠ . لاشين ٤٣٨ ، ٤٤٠ . عتر ٢١٩ . منـير ٧٠ ، ٢٠٣ . خلـف اللّه ٢٣٩ . قمحـاوى ٩٨ . السلامى ٦١ . أبو موسى ٣٦٧ . أبو على ٩١ . صالحة ٧٣ .

(٢) تطور ٢٧٢ - ٣ .

(٣) بينات ٢٢٠ - ١ .

(٤) التراث ٣١٩.

الخطابى

نقل حمد بن محمد الخطابى (٣١٩ - ٣٨٨ / ٩٣١ ــ ٩٩٨) عن قوم أن العلة فى إعجاز القرآن الصرفة . وعرفها بصرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورا عليها ، إلا أن العائق - من حيث كان أمرا خارجا عن مجارى العادات - صار كسائر المعجزات . وذكر أنهم استدلوا بأنه لو كان الله قد بعث نبيا فى زمان النبوات . فقيل له : ما آيتك ؟ فقال : آيتى أن أخرج يدى أو أمد رجلى ، ولا يمكن أحدا منكم أن يفعل مثل فعلى . فحرك يده أو مد رجله كما قال . ورام القوم أن يفعلوا فعله ، فلم يقدروا ، وهم أصحاء الأبدان لا آفة بشىء من جوارحهم ؛ كان ذلك آية دالة على صدقه . وليس يُنظَر فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى ولا إلى فخامة منظره . وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرا خارجا عن مجارى العادات ، ناقضا لها .

وعقب الخطابى على هذه الأقوال بقوله : وهذا أيضا وجه قريب إلا أن قوله سبحانه: ﴿ قُل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[1] تشهد بخلاف ذلك ، لأنها أشارت إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، مما لا يلائم الصرفة . فدل ذلك على أن المراد غيرها[2].

وذهب عبد الكريم الخطيب إلى أن مدلول قول الخطابى : « هذا وجه قريب » أن التصوير للمعجزة ووقوعها على نحو هذا ممكن . ثم استطرد : ولكن ذلك فى المعجزة المادية التى تظهر فى واقع الحس ، متحدية القدرة الإنسانية . أما فى القرآن فقد جاءت المعجزة فيه على غير هذا[3] .

أما د. عمر الملاحويش فقد أعلن أنه لم يجد تعليلا لقول الخطابى : « هذا وجه قريب» إلا أن قال : ربما لم يكن الخطابى قد وقف على وجه لإعجاز القرآن ، بدليل قوله فى

---

(١) سورة الإسراء ٨٨ .

(٢) بيان ٢٠ ــ ١ . فقيهى ١٨١ ، ١٨٣ . عائشة ٧٧ . الخطيب ١٨٥ ــ ٦ . الملا ٢٤٤ ــ ٦ . لاشين ٤٤٤ - ٥ . عبد القادر ٦٦ . خلف الله ٢٣٨ ، ٢٤٠ . البدرى ١٥٣ . أبو موسى ٣٥٥ ، ٣٦٦ . أبو على ١٠١ .

(٣) إعجاز ١٨٦ .

مقدمة رسالته : « قد أكثر الناس الكلام فى هذا الباب ، قديما وحديثا ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول . وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رى . وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز فى القرآن ، ومعرفة الأمر فى الوقوف على كيفيته » .

وتردد الملا فى الحكم على الخطابى . فذكر مرة أنه رفض الصرفة ، غير أنه وصف حجته فى هذا الرفض بعدم القطع . وذكر فى مرة أخرى : ربما كان الخطابى يميل إلى الصرفة ، ولكنه لما وجدها مرفوضة من قبل جماعة المسلمين ، استدرك لينفى عن نفسه قبولها[١] .

الشريف الرضى

انفرد أحمد عز الدين عبد الله خلف اللّه بعدّ محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ / ٩٧٠ - ١٠١٥) ممن قال بالصرفة[٢] . وأعتقد أن خلطا بينه وبين الشريف المرتضى وقع من المطبعة أو من المؤلف .

الإسفرائينى

قال الشهرستانى ، وهو يتحدث عن الأشعرى : القرآن عنده معجزة من حيث البلاغة والنظم والفصاحة ، إذ خُيِّر العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة . ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى ، وهو المنع من المعارضة[٣] .

وأغفل الشهرستانى التصريح باسم القائل بالصرفة من أتباع الأشعرى وبقى العلماء يبحثون عنه إلى أن وجدوا عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى (٧٥٦ / ١٣٥٥) يعدد فى كتاب « المواقف » الأقوال فى إعجاز القرآن ، فيقول : وقيل بالصرفة ، فقال الأستاذ والنظام : صرفهم اللّه مع قدرتهم[٤] .

---

(١) تطور ٢٤٦ - ٨ .

(٢) القرآن ٢٣٩ .

(٣) الملل ١ / ١٠٣ . العمارى ٥٤ - ٥ . البدرى ١٣٩ .

(٤) المواقف ٣٥٠ .

ثم كشف على بن محمد المعروف بالشريف الجرجانى (٧٤٠ — ٨١٦ / ١٣٤٠ — ١٤١٣) عن هذا الاستاذ الذى وافق النظام ، فأبان أنه إبراهيم بن محمد الإسفرائينى[١] (٤١٨ / ١٠٢٧) .

الشريف المرتضى

لا تقل شهرة على بن الحسين المعروف بالشريف المرتضى (٣٥٥ — ٤٣٦ / ٩٦٦ — ١٠٤٤) فى القول بالصرفة عن شهرة النظام . وبلغ به جده فى ذاك إلى أن ألف فيها كتابا سماه « الموضح عن وجه إعجاز القرآن » ، وصفه الفضل بن الحسن الطبرسى (٥٤٨ / ١١٥٣) بأنه فرّع الكلام فيه إلى غاية ما يتفرع ، ونهاه إلى نهاية ما ينتهى ، فلا يشق غباره غاية الأبد ، إذ استولى فيه على الأمد[٢] .

ولم يصل إلينا من أقوال المرتضى فى الصرفة إلا عبارتان . دارت الأولى فى جميع الكتب التى ذكرت مذهبه ، وتصرح أنه قال : إن اللّه سلب العرب العلوم التى لابد منها فى المعارضة[٣] .

وعثر عبد العليم الهندى على الثانية ، فى رسالة للمرتضى ، لا تزال مخطوطة محفوظة فى مكتبة برلين . واحتج فيها المرتضى على الصرفة بأن الفرق بين السور الصغيرة وأحسن كتابات العرب ليس واضحا لكل أحد ، بالرغم من أن الفرق بين الجيد من كلام العرب والردىء واضح . وإذن فقد صرف اللّه العرب عن الإتيان بمثل القرآن[٤] .

وعلق الرافعى على الأول من قولى المرتضى فقال : كأن المرتضى يقول : إن العرب فصحاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعانى ، إذ لم يكونوا أهل علم ، ولا كان العلم فى زمنهم . وهذا رأى بيّن الخلط[٥] .

---

(١) شرح المواقف ٨ / ٢٤٦ . الآلوسى ١ / ٢٨ . الزرقانى ٢/ ٣١٠ . العمارى ٥٥ . البدرى ١٣٩ .
(٢) مجمع البيان ١ / ٣٠ . ياقوت ٣ / ١٣٩ . ابن أبى الإصبع ١٠ . مقدمة أمالى المرتضى ١٧ .
(٣) الآلوسى ١ / ٢٨ . الرافعى ١٦٢ . الزرقانى ٢ / ٣١٠ . الحمصى ٧٠ ، ٩٦ . مناع ٢٦١ . العمارى ٥٤ ـ ٥ . الصابونى ٩٩ . الخطيب ٣٦٥ . أبو زهرة ٧٨ ـ ٩ . عتر ٢٠٦ . البدرى ١٤٠ .
(٤) الحمصى ٦٩ ـ ٧٠ .
(٥) إعجاز ١٦٢ . الصابونى ٩٩ .

ولاحظ نعيم الحمصى فرقا بين رأى النظام فى الصرفة ورأى المرتضى . فالصرفة عند النظام عدم معارضة العرب للقرآن مع قدرتهم عليها ، وعند المرتضى مع عدم قدرتهم عليها ، لأنهم سلبهم الله مقوماتها وما يساعدهم عليها من المعارف ، بعد أن كانت متأصلة فيهم[١] .

وخطّأ الحمصى تفسير الرافعى لرأى المرتضى ، وقوله : إن العرب لم يكونوا أهل علم ، ولا كان العلم فى زمنهم . وأعلن : إذا كانوا كذلك فإذن لم يسلبهم اللّه شيئا ؟ وإذن فأين الصرفة ؟ ورجح أن سبب هذا الخطأ أن الرافعى فهم من معنى (العلوم) غير ما قصده المرتضى منها ، وهى العلوم المساعدة على نظم الكلام[٢] .

ونقل الحمصى أن عبد العليم الهندى قال : إن الشريف المرتضى ربما كان آخر من قال فى الإعجاز بالصرفة وحدها . ثم خطّأه ، وقال : حقا إن أكثر من قال بها بعده جمعها مع النظم كالأصفهانى ، ولكن الخفاجى مثلا قال بها وحدها[٣] .

ومع ذلك يحسن التنبه إلى أن الشريف المرتضى ـ فيما يبدو ـ لم يلتزم بالقول بالصرفة وحدها . فقد علق فى كتابه « طيف الخيال » على أبيات أعجب بها لعمرو بن قميئة ، فقال : « فانظر إلى هذا الطبع المتفق ، والنسج المتسق ، من أعرابى قُح ، قال فى هذا المعنى الكثير ، ونظم منه الغزير ، وقلب ظاهره وباطنه ، وباشر أوله وآخره . وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحسنين وإجادة المجيدين ، ما سلك منهجه ، وأخرج كلامه مخرجه . ولكن اللّه ـ تعالى ـ أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة ، وهداهم من مسالك البلاغة، إلى ما هو ظاهر باهر . ولهذا كان القرآن معجزا وعَلما على النبوة ، لأنه أعجز قوما هذه صفاتهم ونعوتهم[٤] » . وهو قول قد يدل على أن الإعجاز فى الفصاحة والبلاغة .

---

(١) فكرة ٧٠ .

(٢) فكرة ٧٠ .

(٣) فكرة ٧٠ .

(٤) ٨٣ . فكرة ٧١ .

الماوردى

وأورد على بن محمد الماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠ / ٩٧٤ - ١٠٥٨) أن إعجاز القرآن من عشرين وجها ، وجعل الصرفة الوجه الأخير منها . وذكر أن من قالوا بها اختلفوا على قولين :

أحدهما : أنهم صُرفوا عن القدرة على معارضته ، ولو قدروا لعارضوه .

الثانى : أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخولها فى مقدورهم .

ثم أعلن أن الصرفة إعجاز على القولين ، فى قول من نفاها ومن أثبتها .

وقدم قولا قد يُعترض به ، فقال : فإن قيل : فإن عجزوا عن معارضته بمثله ، لم يعجزوا عن معارضته بما يقاربه وإن نقص عن رتبته ؛ والمعجز ما لم تمكن مقاربته كما لا تمكن مماثلته .

ثم جاء بجوابين عن هذا الاعتراض :

أحدهما : أن مقاربته تكون بما فى مثل أسلوبه ، والأسلوب ممتنع . فبطلت المقاربة .

والثانى : أن التحدى إنما كان بالمماثل لا المقارب[١] .

ابن حزم

صرح أبو محمد على بن أحمد المعروف بابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ / ٩٩٤ — ١٠٦٤) بأن المسلمين أجمعوا على أن القرآن معجز . ثم اختلف أهل الكلام فى خمسة أنحاء فى وجه الإعجاز ، وأعلن أن سائر أهل الإسلام رأوا أن إعجازه فى نظمه ، وفيما فيه من الإخبار بالغيوب كليهما . ورأوا أن ذلك هو الحق الذى من خالفه فهو على ضلال[٢] .

وجعل النحو الرابع من الأنحاء الخمسة التى افترق إليها المسلمون جماعتين :

١ - طائفة قالت : وجه إعجازه كونه فى أعلى مراتب البلاغة .

٢ - طوائف قالت : إنما وجه إعجازه بأن اللّه منع الخلق من القدرة على معارضته فقط .

وذكر أن الطائفة الأولى احتجت على الثانية بأن ذكرت آيات منه ، مثل قوله :

---

(١) أعلام ٧٢ - ٣ . الحاكم ٤٤٥ .

(٢) الفصل ٣ / ١٥ - ٧ . العمارى ٧٨ . منير ٩٣ . قمحاوى ٩٩ .

﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾[١] وقالت : لو كان الأمر كما تقولون من أن الإعجاز فى منع اللّه الناس من معارضته ، لَوَجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام ، فتكون الحجة بذلك أبلغ[٢].

ورد عليهم قائلا : ما نعلم لهم شغبا غير هذين ، وكلاهما لا حجة لهم فيه :

١ ـ أما قولهم : لو كان كما قلنا لوجب أن يكون أغث ... فهذا هو الكلام الغث حقا لوجوه :

أحدها : أنه قول بلا برهان ، لأنه يعكس عليه قوله بنفسه ، فيقال له : بل لو كان إعجازه لكونه فى أعلى درجات البلاغة ، لكان لا حجة فيه ، لأن هذا يكون فى كل من كان فى أعلى طبقة . وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود . فهذا أقوى من شغبهم[٣].

وثانيها : أن اللّه لا يُسأل عما يفعل ، ولا يقال له : لم عجّزت بهذا النظم دون غيره؟ ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره ؟ ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تقلبها أسدا؟ هذا كله حمق ممن جاء به ، لم يوجبه قط عقل . وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط[٤] .

وثالثها : أنهم حين طردوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد ، لزمهم أن يقولوا : هلاّ كان هذا الإعجاز فى كلام بجميع اللغات ، فيستوى فى معرفة إعجازه العرب والعجم ، لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بإخبار العرب فقط . فبطل هذا الشغب الغث[٥].

٢ ـ وأما ذكرهم الآيات التى احتجوا على بلاغتها فلا حجة لهم فيها . ويقال لهم : إن كان الأمر كما تقولون ، كان المعجز منه ما ذكرتم من الآيات ، وأما سائره فلا . وهذا كفر لا يقوله مسلم .

فإن قالوا : جميع القرآن مثل هذه الآيات فى الإعجاز .

قيل لهم : فلم خصصتم بالذكر هذه الآيات دون غيرها إذن ؟ وهل هذا منكم إلا إيهام لأهل الجهل أن من القرآن معجزا ومنه غير معجز[٦] ؟

---

(١) سورة البقرة ١٧٩ . (٢) الفصل ٣ / ١٧ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨٠ .
(٣) الفصل ٣ / ١٧ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨٠ .
(٤) الفصل ٣ / ١٧ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨٠ .
(٥) الفصل ٣ / ١٧ ـ ٨ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨١ . (٦) الفصل ٣ / ١٨ . الحمصى ٨١ .

ثم نقول لهم : قول الله : ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبورا ﴾[١] أمعجز هو على شروطكم فى كونه فى أعلى درجات البلاغة أم ليس معجزا ؟

فإن قالوا : ليس معجزا ؛ كفروا .

وإن قالوا : معجز ؛ صدقوا .

وسئلوا : هل على شروطكم فى أعلى درجات البلاغة ؟

فإن قالوا : نعم ، كابَروا ، وكفوا مؤنتهم لأنها أسماء رجال فقط ، ليست على شروطهم فى البلاغة[٢] .

٣ ـ وأيضا لو كان إعجاز القرآن لأنه فى أعلى درجات البلاغة ، لكان بمنزلة كلام الحسن بن سهل وسهل بن هارون والجاحظ ، وشعر امرئ القيس . ومعاذ الله من هذا . لأن كل ما يسبق ما فى طبقته ، لم يؤمن أن يأتى ما يماثله ضرورة . فلابد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا : إن الله منع من معارضته فقط[٣] .

٤ ـ وأيضا لو كان إعجازه لكونه فى أعلى درج البلاغة المعهودة ، لوجب أن يكون ذلك للآية ولما هو أقل من آية . وهذا ينقض قولهم : إن المعجز منه ثلاث آيات لا أقل[٤].

ثم انتقل إلى إبانة رأيه الخاص والدفاع عنه ، فقال : فإن قالوا : فقولوا أنتم : هل القرآن موصوف بأنه فى أعلى درج البلاغة أم لا ؟

قلنا ، وبالله التوفيق : إن كنتم تريدون أن الله قد بلغ ما أراد ، فنعم هو فى هذا المعنى فى الغاية التى لا شىء أبلغ منها . وإن كنتم تريدون : هل هو فى أعلى درجات البلاغة فى كلام المخلوقين ؛ فلا لأنه ليس من نوع كلام المخلوقين : لا من أعلاه ، ولا من أدناه، ولا من أوسطه[٥] .

---

(١) سورة النساء ١٦٣ .
(٢) الفصل ٣ / ١٨ . الحمصى ٨٢ .
(٣) الفصل ٣ / ١٨ . الجوينى ٥٤ . الحمصى ٨٢ . العمارى ٨٢ .
(٤) الفصل ٣ / ١٨ .
(٥) الفصل ٣ / ١٨ ـ ٩ . الحمصى ٨٢ . العمارى ٨١ . وانظر أبو زهرة ٧٩ .

وبرهان هذا أن إنسانا لو أدخل فى رسالة أو خطبة أو تأليف أو موعظة له حروف الهجاء المقطعة ، لكان خارجا عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك . وإذن فالقرآن ليس من نوع بلاغة الناس أصلا . وصح أن الله منع الخلق من مثله ، وكساه الإعجاز ، وسلبه جميع كلام الخلق[1] .

وبرهان ثان أن الله حكى عن قوم من أهل النار أنهم يقولون ، إذ سئلوا عن سبب دخولهم النار : ﴿ لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ﴾[2] وحكى عن كافر قوله : ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ﴾[3] ... كل هذا - إذا قاله غير الله - غير معجز بلا خلاف : إذ لم يقل أحد من أهل الإسلام أن كلام غير الله معجز . لكن لما قاله الله ، وجعله كلاما له ، أصاره معجزا ، ومنع من مماثلته . وهذا برهان كاف لا يُحتاج إلى غيره[4] .

وفسر محمد أبو زهرة موقف ابن حزم ، فذكر أنه يبدو بادى الرأى غريبا منه . ولكن المتأمل فيه يجده سائرا على مذهبه الظاهرى فى نفى الرأى ، والحكم بظاهر القول من غير تعليل . فالاتجاه إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته التى علت عن طاقة العرب ، وجعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراء ولا جدال ، يعدّ تعليلا . وهو من باب الرأى الذى ينفيه ، والتعليل الذى يجافيه[5] .

---

(١) الفصل ٣ / ١٩ . الحمصى ٨٢ . العمارى ٨١ .

(٢) سورة المدثر ٤٣ - ٧ .

(٣) سورة المدثر ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) الفصل ٣ / ١٩ . الحمصى ٨٢ . الرافعى ١٦٤ . الحمصى ٨٢ . العمارى ٨٢ . الصابونى ٩٩ . أبو زهرة ٧٩ . عائشة ٧٧ . الزفزاف ١٣١ .

(٥) المعجزة ٧٩ . خلف الله ٢٣٩ .

ابن سنان الخفاجی

عرف عن ابن سنان الخفاجی (٤٢٣ ــ ٤٦٦ / ١٠٣٢ ــ ١٠٧٣) التزامة بمذهب الصرفة ، ودفاعه عنه . فقد ألف فيه كتابا لم يصل إلينا[١] غير أن ما دوّنه فی كتابه الأشهر « سر الفصاحة » ما زال بين أيدينا .

افتتح ابن سنان « سر الفصاحة » بأن القرآن هو المعجز الدال على نبوة محمد ﷺ وأن الناس اختلفوا فی وجه إعجازه على قولين :

أحدهما : أنه خرق العادة بفصاحته ، وجرى مجرى قلب العصا حية .

الثانی : أنه صرف العرب عن المعارضة ، مع أن فصاحة القرآن كانت فی مقدورهم[٢] .

وصرح بأن الفريقين يحتاجان إلى تحقق ما هية الفصاحة . ليعرف أصحاب القول الأول ما وقع فيه التزايد موقعا خرج عن مقدور البشر . وليقطع أصحاب القول الثانی أنها كانت فی مقدورهم ، ومن جنس فصاحتهم ، ويعلموا أن مسيلمة وغيره لم يأتوا بمعارضته على الحقيقة[٣] .

وإذا كان الخفاجی لم يصرح برأيه هنا ، فقد فعل فيما بعد ، وهو يناقش آراء الرمانی . فقد أورد تقسيمه للتأليف على ثلاثة أضرب :

١ ـ متنافر .

٢ ـ ومتلائم فی الطبقة الوسطى .

٣ ـ ومتلائم فی الطبقة العليا .

وأورد إعلان الرمانی أن الضرب الثالث هو القرآن كله ، وأن الفرق بينه وبين غيره من الكلام فی تلاؤم الحروف مثل الفرق بين الضربين الأول والثانی .

---

(١) ياقوت ٣ / ١٣٩ . العماری ٧٤ . البدری ١٤٢ .

(٢) سر ٣ ـ ٤ . الحمصی ٨٤ . العماری ٧٠ . البدری ١٤١ .

(٣) سر ٤ . العماری ٧١ . وليد ٣١٨ ـ ٩ .

ثم عقب على ذلك بأن هذا الذى ذكره الرمانى غير صحيح ، والقسمة التى صنعها فاسدة ، لأن التأليف على ضربين اثنين فقط :

١ ـ متنافر .

٢ ـ ومتلائم .

وقد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض ، ولا يحتاج أن يُجعَل ذلك قسما ثالثا . كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد فى التنافر من بعض ، دون أن يجعل الرمانى ذلك قسما رابعا(١) .

ورفض ابن سنان وضع الرمانى القرآن فى الطبقة العليا من المتلائم ، وجميع كلام العرب فى الطبقة الوسطى . وجاهر بأنه لا فرق بين القرآن وفصيح الكلام المختار فى هذا الجانب . ومتى رجع الإنسان إلى نفسه ـ وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ـ وجد فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه(٢) .

وتساءل : ثم يقال له : أليس التلاؤم هو ما ذكرناه فى تأليف حروف الكلمة المفردة ، أى أن تكون متباعدة المخارج ؟ فلا يملك إلا أن يقول : نعم ، فيقال له : ما عندك فى تأليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفرادها : أهو متلائم فى الطبقة العليا أم فى الطبقة الوسطى ؟

فإن قال : فى الطبقة العليا .

قيل له : أو ليست هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ؟ ولولا ذلك لم يكن القرآن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته . فلابد أن يجيب بالإيجاب .

فيقال له : لقد أقررت الآن أن فى كلام العرب ما هو متلائم فى الطبقة العليا ، وهو الألفاظ المفردة ، ولم يتحتم عليك فى ذلك ما يفسد وجه إعجاز القرآن . فهلا قلت فى كلامهم المؤلف من هذه الألفاظ ما هو كذلك أيضا ، فإن علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر(٣) .

---

(١) سر ٨٨ ـ ٩ . الحمصى ٨٤ . العمارى ٧١ ـ ٢ . وليد ٣١٩ .

(٢) سر ٨٩ . ياقوت ٣ / ١٣٩ . الحمصى ٨٤ ـ ٥ . العمارى ٧٣ . الخطيب ٣٧٢ ـ ٣ . الملا ٢٥٣ . البدرى ١٤٢ . وليد ٣١٩ .

(٣) سر ٩٠ . العمارى ٧٢ . الخطيب ٣٧٥ .

وإن قال : إن كل لفظة من ألفاظ القرآن متلائمة فى الطبقة الوسطى .

قيل له : أولا : مازالت مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم باقية . ثم ما الفرق بينك وبين من ادعى ان التلاؤم من ألفاظ القرآن فى الطبقة العليا ؟ فإن أحد الموضعين كالآخر . على أن اللفظة المفردة يظهر فيها التلاؤم ظهورا بينا ، بقلة عدد حروفها ، واعتبار مخارجها : فإن كانت متباعدة ، كان تأليفها متلائما ؛ وإن تقاربت ، كان متنافرا . وليس ينازعنا فى كلمة من كلم القرآن ـ إذا أوضحنا له تأليفها ـ ويقول : ليس هذا فى الطبقة العليا إلا ونقول مثله فى تأليف الألفاظ بعضها مع بعض ، لأن االدليل على الموضعين واحد .

فقد بان أن الذى يجب اعتماده أن التأليف على ضربين فقط : متلائم ، ومتنافر ، وأن تأليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم . ولا يقدح هذا فى وجه من وجوه إعجاز القرآن[١] .

وعاد ابن سنان إلى الإفصاح عن رأيه فقال : إذا عدنا إلى التحقيق ، وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سُلبوا العلوم التى كانوا بها يتمكنون من المعارضة عند ما يرومون ذلك . وإذا كان الأمر على هذا ، كنا غير محتاجين إلى ادعاء ما ذهب الرمانى إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وغيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم[٢] .

وذكر نعيم الحمصى أن رأى الخفاجى فى الصرفة نفس رأى الشريف المرتضى الذى خالف رأى النظام قليلا[٣] .

ولكن عمر الملاحويش ذكر أن ابن سنان أيد النظام فى رأيه[٤] .

وذكر د. وليد قصاب أنه شايع النظام[٥] .

والحق إن ابن سنان يتفق مع النظام فى كون القرآن مماثلا لكلام العرب الفصحاء ، وأنهم ـ لولا الصرفة ـ كانوا قادرين عليه ؛ ويتفق ـ فى الوقت نفسه ـ مع الشريف المرتضى فى جعل الصرفة سلبا لعلوم العرب التى كانت تمكنهم من المماثلة فى المعارضة .

---

(١) سر ٩٠ .
(٢) سر ٨٩ . الحمصى ٨٥ . العمارى ٧٣ . الخطيب ٣٧٢ ـ ٤ . الملا ٢٥٤ . الدبل ٣١ . وليد ٣١٨ ـ ٩ .
(٣) فكرة ٨٥ . فقيهى ٧٣ .
(٤) تطور ٢٥٣ .
(٥) التراث ٣١٨ .

ورد العمارى على ابن سنان ، فقال : لسنا نرى فى كلامه ما يجعلنا نؤمن بهذا المذهب ، لأنها دعوى يعوزها الدليل . وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله : إن تأليف القرآن من منهج تأليف كلام العرب فى تلاؤم الألفاظ ، لأن الكلمات المفردة هى كلماتهم ، فلابد أن تكون الأساليب أساليبهم . ولا ندرى كيف ذهب عليه أن الكلمات قد تكون واحدة ، ولكن الفصحاء يختلفون فى صياغتها ، ألا ترى قطعة الذهب تكون فى يد أحد الصائغة صورة رائعة جذابة ، وفى يد آخر بلدية ساذجة ، وهى هى فى الأصل[1] .

ورد عبد الكريم الخطيب على ابن سنان . فذكر أن رأيه الذى دفع به إعجاز القرآن من جهة فصاحته رأى فائل متهافت ، لأنه أقامه على قصور الحجة التى احتج بها الرمانى على فصاحة القرآن . وهذه الحجة التى قال بها الرمانى لم تكن هى كل ما قال فى وجوه الإعجاز ، كما أنه لم يجعل الفصاحة فى سلامة الحروف من التنافر فقط[2] .

وتوسع فى الرد الذى أتى به العمارى . فوصم تسويته بين الألفاظ المفردة المبعثرة فى كل وجه والكلام المنظوم بالمغالطة أو الظلم وعدم القيام على منطق من الحق أو شاهد من الواقع . فلو صح هذا الرأى لما كان هناك تفاوت بين قول وقول ، أو بين شاعر وشاعر ، أو كاتب وكاتب ، إذ كانوا جميعا يبنون ما يبنون من أساليب البيان من كلمات معروفة لهم جميعا . وإنما تتفرق بهم السبل ، وتختلف المنازل ، فيعلو بعضهم ، ويسفّ بعضهم ، حين ينظمون هذا الكلم المفرد فى أساليب من القول ؛ وحين يبنون من هذه الكلمات ما يدور فى عقولهم من معان ، وما يختلج فى صدورهم من مشاعر وعواطف[3] .

---

(١) حول ٨٥ . البدرى ١٤٢ ، ١٥٠ .
(٢) إعجاز ٣٧٤ .
(٣) إعجاز ٣٧٥ - ٦ .

الجوينـــــى

أعلن إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد اللّه الجوينى (٤١٩ - ٤٧٨ / ١٠٢٨ - ١٠٨٥) أن الناس أكثروا وتفرقوا فى وجه إعجاز القرآن ، وأنه موقف تاه فيه الأولـون والآخرون ، ونبح فيه الطاعنون .

ثم وعد أن يـدلى فيه فـى مسـلك الحـق المبـين ، ويبـين علـى أوضـح الوجـوه اندفـاع تمويهات الزائغين ، وانتقاض مطاعن المبطلين .

ومهّد لرأيه باعلان أن الفصاحة لا تصلح وجها للإعجاز : قـال : فليعلـم المشـتهى إلى ذلك أن من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه فى جزالته خارق للعادة ، مجاوز فى الفصاحة أقدر البلغاء واللُّسن والفصحاء ، فقد حاد عن مدرك الحق .

وعلل هذا الحكم بما يلى :

- من تأمل كلام العرب فى نظمها ونثرها لم يتحقق عنده انتهاء جزالة القرآن إلى حـد الخروج عن العادة فى الزيادة على كلام الفصحاء . ومن تكلف إثبات ذلك فقـد تكلـف شططا وظن غلطا .

- لو ظهرت زيادة فى مرقى القرآن عن رتب الكلام ، فليس فيه مَقْنع . فإنه قـد يبقـى فى بعض الأعصار رجل تفرد فى شعر أو نثر لا يُدرك شأوه . وقلما يخلو عصر مـن مـبرز لا يوازَى فى فنه . ولا يثبت الإعجاز بمثل ذلك .

وأخيرا كشف عن رأيه فقال : الوجه ألا يدَّعى بلوغ جزالة القرآن مبلغ خرق العادة . ونقول : تحدى النبى ﷺ فصحاء العرب أن يأتوا بمثله . وتمادى على تحديه نيفا وعشـرين سنة ، والقرآن بلغتهم ، وليس بعيدا من مبلغ اقتدارهم فى جزالته وأسلوبه ، فلـم يقـدروا على الإتيان بمثله . ثم استأثر اللّه برسوله ، وكرت العصور ، وأقطار الأرض تطفح بجميـع الكفار ، ذوى الفطن النافذة ، يبحثون عن مطعن فى الإسلام . وفى كل قطر منهم طائفة مشتغلون بالنظم والنثر على لغة العرب . فقصـروا عـن المعارضـة . فتبـين قطعـا أن الخلـق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدوراتهم .

ثم أخذ يدافع عن رأيه فقال :

ـ ذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة فى أنفسها .

ـ ومن هُدى لهذا المسلك فقد أُرشد إلى الحق المبين ، وانعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا . فإنهم تارة يدّعون سقوط القرآن عن رتبة الجزالة ، وولوجه فى الركيك . وتارة يسلمون بشرف جزالته ، ويدعون أنه غير خارق للعادة . وكيف تصرفت أسئلتهم فصرفُ اللّه الخلقَ عن الإتيان بمثله أنجع وأوقع .

ـ كلما كان الكلام أقرب مأخذا : وأبعد عن الغاية القصوى ، كان أحرى أن يتبدَّر إلى معارضته . فإذا لم تجر المعارضة ، لم يبق ـ مع توفر الدواعى عليها ـ محمل إلا صرف اللّه الخلق .

ـ هذا الفصل من أنفس ما يجرى به خاطر ، وهو بالغ جدا ، أبلغ من قلب العصا حية ونحوه . فإنه قد يسبق مبادر إلى أنه من خصائص صاحب المعجزة بمزايا فى العلوم تؤدى إليها . أما عجز الخلائق خمس مئة سنة عن معارضة كلام مماثل لكلامهم ، أتى به رجل أمى ، لم يعانِ العلم و لم يدارس أهله ، فلا محمل له إلا صرف اللّه الخلق ومنعهم[١] .

الراغب الأصفهانى

كذلك كان أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (٥٠٢ / ١١٠٨) من أنصار الصرفة والنظم معا . يتضح ذلك من قوله : أما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضا إذا اعتُبر . وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال ، محمودة كانت أو مذمومة ، إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات إلهية ، بدلالة أن الواحد يؤْثر حرفة من الحرف ، فينشرح صدره بملابستها ، وتطيعه قواه فى مزاولتها . فيقبلها باتساع قلب ، ويتعاطاها بانشراح صدر . وقد تضمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾[٢] وقول النبى ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

---

(١) العقيدة ٥٤ ـ ٦ . عياض ٧٤٠ ـ ١ .   (١) سورة المائدة ٤٨ .

فلما رُئى أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون فى كل واد من المعانى بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن ، وعجزهم عن الإتيان بمثله ، وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدى لمعارضته ؛ لم يخفَ على ذى لب أن صارفا إلهيا يصرفهم عن ذلك. وأى إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيَّرة فى الظاهر أن يعارضوه ، ومجبرة فى الباطن عن ذلك[١] .

القاضى عياض

جعل القاضى عياض بن موسى اليحصبى (٤٧٦ — ٥٤٤ / ١٠٨٣ — ١١٤٩) المعجزة على ضربين :

- ضرب خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى ، وقلب العصا حية .
- وضرب من نوع قدرة البشر ، وإنما تعجيزهم عنه فعلٌ لله ، يدل على صدق نبيه ، كصرف اليهود عن تمنى الموت تحقيقا للآية الرابعة والتسعين من سورة البقرة ، وتعجيز العرب عن الإتيان بمثل القرآن على رأى بعضهم[٢] .

ثم ذكر وجوها متعددة للإعجاز . وبعد أن فرغ منها ذكر مذهب الصرفة مع قدرة البشر على معارضة القرآن ، وعقب عليه بأن بين المذهبين فرقا بيّنا ، وعليهما جميعا أبْين آية للعجز عن الإتيان بمثله ، والنكول عن معارضته . ثم أورد قول الجوينى فى الصرفة[٣]. ورأى نعيم الحمصى فى هذا إثباتا مبهما ضعيفا للصرفة[٤] .

---

(١) مقدمة جامع التفاسير ١٠٨ - ٩ . معترك ١ / ٤ ، ٦ . الإتقان ٢ / ١٣٨ - ٩ . الحمصى ١٣٦ - ٨ ، ١٥٤ ، ٤٥٢ . صالحة ٦٩ ، ٧١ - ٢ .

(٢) الشفا ٤٩١ .

(٣) الشفا ٧٤٠ . الإتقان ٢ / ١٤١ .

(٤) فكرة ٩٢

الرازى

تذبذبت أقوال فخر الدين محمد بن عمر الرازى (٥٤٤ ــ ٦٠٦ / ١١٥٠ ــ ١٢١٠) . فقد ذكر للإعجاز عدة وجوه ، ثم قال والمختار عندى وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة . وفند الصرفة بعدة ردود[١] .

ولكنه أتى فى تفسير آية التحدى فى سورة البقرة بما يشعر أنه يميل إلى الصرفة . قال : فإن قيل : قوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾[٢] . يتناول سورة الكوثر ، وسورة العصر ، وسورة الكافرون ، ونحن نعلم أن الإتيان بمثلها أو بما يقرب منها ممكن ؟

فإن قلتم : إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر ؛ كان ذلك مكابرة. والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين .

قلنا : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى ، وقلنا : إن بلغت السورة فى الفصاحة إلى حد الإعجاز ، فقد حصل المقصود . وإن لم يكن الأمر كذلك ، كان امتناعهم عن المعارضة ـ مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره ــ معجزا . فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز[٣] .

ونعيم الحمصى على حق ، حين يعلق على هذا الموقف فيقول إن فخر الدين الرازى ينكر الصرفة فى كتاب ، وينصرها فى آخر ، ويجمع فى ثالث بين النقيضين : الصرفة والبلاغة ، دون أن يرى مانعا عقليا من ذلك[٤] .

وواضح أن الرازى يقصر وجه الصرف على السور القصار ، أما غيرها فيرى الفصاحة وجهها .

---

(١) التفسير ٢ / ١١٥ ، ١٧ / ٩٥ ، ١٩٥ . نهاية ٥ ، ٧ . عائشة ٧٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٣ .

(٣) التفسير ٢ / ١١٧ .

(٤) فكرة ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ٤٥٢

الطوسى

وأورد نصير الدين محمد بن محمد الطوسى (٥٩٧ ـ ٦٧٢ / ١٢٠١ ـ ١٢٧٤) عدة وجوه للإعجاز ، ثم قال : أقول : إعجاز القرآن ـ على قول قدماء المتكلمين وبعض المحدثين ـ فى فصاحته ـ وعلى قول بعض المتأخرين ـ فى صرف عقول الفصحاء القادرين على المعارضة عن إيرادها . قالوا : كل أهل صناعة اختلفوا فى تجويد تلك الصناعة ، فلا محالة يكون فيهم واحد لا يبلغ غيره شأوه ، ويعجز الباقون عن معارضته . ولا يكون ذلك معجزا ، لأن ذلك لا يكون خرقا للعادة . لكن صرف عقول أقرانه القادرين على معارضته يكون خرقا للعادة . فذلك هو المعجز[1] .

ونعيم الحمصى على حق ، حين يعلق على هذا الموقف ، فيرى أنه يتضح من هذا النص أن الطوسى ذكر ما يراه غيره من القدماء والمحدثين فى الإعجاز بالفصاحة أو بالصرفة ، دون أن يرجح رأيا على آخر[2] .

ابن النقيب

أورد جمال الدين أبو عبد اللّه محمد بن سليمان البلخى (٦١١ ـ ٦٩٨ / ١٢١٤ ـ ١٢٩٨) عدة وجوه للإعجاز ، وما وُجِّه إليها من نقد ورد . ثم أنهى حديثه قائلا : وكل واحد من هذه الأقوال يحتمل أن يكون معجزة ، إذا تحدى بها الرسول ﷺ وعجزوا عن الإتيان بمثل ما تحدى به .

والذى يتعين اعتقاده : أن القرآن ـ بجملة ألفاظه ومعانيه ، وبعضه وكله ـ معجزة . إما لسلب قدرتهم عن الإتيان بمثله ، وإما لصرفهم عنه . لأن النبى ﷺ تحدى به ، وعرض عليهم الإتيان بمثله ، فعجزوا عن ذلك . ولأن اللّه أخبر أنهم لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . هذا الذى وقع عليه تصريح الكتاب ، وصريح الكتاب . ولا مرية فى ذلك ولا خلاف[3] .

---

(١) تلخيص المحصل ٢٠٨ . (٢) الحمصى ١٠٩ .

(٣) مقدمة ٥٢٠ ـ ١ . الحمصى ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ٤٥١ .

فأبان أنه جمع بين البلاغة والصرفة ، على الرغم من سبق رده عليها . وعلل نعيم الحمصى موقفه هذا بأن الذى دفعه إليه هو اعتقاده بأن المؤمن يجب أن يسلّم تسليما مطلقا بإعجاز القرآن وصحة النبوة(١) .

ابن تيمية

ونثر شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ / ١٢٦٣ — ١٣٢٨) حديثه عن إعجاز القرآن فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

فبدأ بالقول : كون القرآن معجزة : ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه فقط .. ولا من جهة صرف الدواعى عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط . بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة(٢) .

ثم قال : وكل ما ذكره الناس من الوجوه فى إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ، ولا يناقض ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

وختم بالقول : ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بالصرفة ، التى أبان تعريفاتها وما يقال فى التدليل عليها فقال :

- صرف الدواعى ، مع قيام الموجب لها .
- سلب القدرة الجازمة ، بصرف اللّه قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام .
- سلب القدرة المعتادة فى مثله سلبا عاما ، مثل قوله - تعالى — لزكريا : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾(٣) . فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل . وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة ، مع قيام الدواعى العظيمة إليها من أبلغ الآيات الخارقة للعادات . وهو بمنزلة من يقول : إنى آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم ، وأضربهم جميعهم ،

---

(١) الحمصى ١٤٤ .
(٢) الجواب ٤ / ٧٤ .
(٣) سورة مريم ١٠ .
(٤) الجواب ٤ / ٧٥ ، ٧٧ . الصباغ ٦١ . ٢ .

وأجوعهم - وهم قادرون على أن يشكوا إلى اللّه ، أو إلى ولى الأمر - وليس فيهم — مع ذلك - من يشتكى . فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة(٤) .

نتبين من هذه الأقوال أن ابن تيمية لم يرفض الصرفة رفضا باتا ، وإنما رأى القول بها أضعف الأقوال .

العلوى اليمنى

وحاول يحيى بن حمزة العلوى (٦٦٩ - ٧٤٥ / ١٢٧٠ - ١٣٤٤) أن يثبت إعجاز القرآن بطريقة جدلية ، فقال : ليس يخلو الإتيان بمثيل لكل واحدة من سور القرآن :

إما أن يكون معتادا .

أو غير معتاد .

فإن كان معتادا ، كان سكوت العرب ، مع فصاحتهم ، وشدة عداوتهم للرسول ﷺ وتوفر دواعيهم على إبطال أمره ، لا محالة من أبهر المعجزات .

وإن لم يكن معتادا . كان القرآن معجزا ، لخروجه عن المألوف والمعتاد . فثبت — بما ذكرناه - أن القرآن سواء كان خارقا للعادة أو لم يكن ، فإنه يكون معجزا[١] .

وعلق نعيم الحمصى على هذا القول قائلا : هنا يبدو لنا صاحب الطراز مناصرا لرأى الصرفة ، إلى جانب الرأى بخرق القرآن للعادة ، دون أن يبين سبب خرقه — بيد أنه لا يجوز الاعتماد على هذا القول لأن هذا الدليل جدلى ، غير مقنع . وكان عليه أن يسعى لتقرير الحقيقة وإثباتها علميا . فهل وقع التحدى والعجز أوْ لا أوَّلا ؟ ثم هل للقرآن مميزات واضحة على غيره من الكلام ، أو ليس له ذلك ثانيا ، بدلا من اللجوء إلى مثل هذه الحجة المطاطة(٢) ؟

وقد خان الصواب الحمصى فى هذا التعليق . فقد أجاب العلوى فى بقية الفصل الذى عقده لبيان كون القرآن معجزا عن الأسئلة التى أتى بها ، ورد على القول بالصرفة ، وأورد الوجوه الأخرى للإعجاز ، وجعل المبحث الثالث من هذا الفصل لبيان ما اختاره

---

(١) الطراز ٣ / ٣٨٦ .

(٢) فكرة ١٣٣ .

(٣) الطراز ٣ / ٤٠٤ - ٥ .

من هذه الأقاويل ، وهو فصاحة الألفاظ ، وبلاغة المعانى ، وجودة النظم ، وحسن السياق[٣] .

وبعد أن عزا العلوى الصرفة إلى النظام والنصيبى من المعتزلة ، والشريف المرتضى من الإمامية ، أتى بالتعريفات الثلاثة التالية لها :

الأول : أن يريدوا بها أن اللّه سلب دواعيهم إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعى حاصلة .

الثانى : أن يريدوا بها أن اللّه سلبهم العلوم التى لابد منها فى الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه . ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين : أحدهما أن يقال إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار ، لكن اللّه أزالها عن أفئدتهم وثانيهما أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم ، خلا أن اللّه صرف دواعيهم عن تجديدها ، مخافة أن تحصل المعارضة .

الثالث : أن يراد بها أن اللّه منعهم على جهة القَسْر عن المعارضة ، مع كونهم قادرين[١] .

وعلق نعيم الحمصى على هذه التفسيرات ، فذكر أن واحدا منها يطابق رأى النظام — يريد التفسير الأول - وآخر يؤيد رأى المرتضى — يريد الثانى — و لم يدر من أين أتى بالتفسير الثالث[٢] .

والحق إن هذا التفسير الثالث هو رأى النظام أيضا ، كما حكاه الأشعرى وابن حزم .

ابن كثير

وقال عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير (٧٠١ — ٧٧٤ / ١٣٠٢ - ١٣٧٣) : قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصرفة ، فقال : إن كان هذا القرآن معجزا فى نفسه ، لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ، فقد حصل المدعَى ، وهو المطلوب . وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ،

---

(١) الطراز ٣ / ٣٩١ - ٢ . الحمصى ١٣٣ . العمارى ٧٣ .   (٢) فكرة ١٣٣ .

و لم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له ، كان ذلك دليلا على أنه من عند اللّه ، لصرفه إياهم عن معارضته ، مع قدرتهم على ذلك .

وهذه الطريقة - وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز - إلا إنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق - وبهذه الطريقة أجاب الرازى فى تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر والكوثر(١) .

وعلى الرغم من ذلك ، رفض ابن كثير قول الرازى ، وأعلن أن الصواب أن كل سورة من القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر معارضتها ، طويلة كانت أو قصيرة(٢) .

وعلقت د. عائشة عبد الرحمن على هذا الموقف قائلة : المسألة — كما ترى — قد عولجت فى مجال الجدل النظرى ، وإن آلت بالمعتزلة أنفسهم — بعد الجيل الأول من شيوخهم - إلى أن اعتبار الصرفة وجها من وجوه الإعجاز لا يعطل النظر فى وجه إعجازه البلاغى . والذين ذكروا الصرفة ، من غير المعتزلة ، استيعابا لمذاهب المتكلمين فى الإعجاز ، لم يلبثوا أن خصوا إعجازه البلاغى بالعناية والاهتمام(٣) .

الآلوسى

ويدلنا على أن المتآخرين لم يعودوا تفزعهم الصرفة ونظروا إليها باعتبارها أحد وجوه الإعجاز قول السيد شهاب الدين محمود بن عبد اللّه الآلوسى (١٢١٧ — ١٢٧٠ / ١٨٠٢ - ١٨٥٤) بعد أن رد عليها بأربعة ردود : لا بأس بانضمامه إلى ما ذكرناه [من وجوه] . وأما الاكتفاء به فلا أظنك ترضاه(٤) .

(١) التفسير ١ / ٦١ . الحمصى ١٥٠ . عائشة ٧٨ . أبو موسى ٣٥٨ .
(٢) التفسير ١ / ٦٢ . الحمصى ١٥٠ ، ١٥٤ .
(٣) الإعجاز ٧٩ .
(٤) روح ١ / ٢٨ - ٩ .

الفصل الثانى

الرد على القول بالصرفة

لما كان القول الأول بالصرفة اعتمد على القول بأن العرب كانوا قادرين علـى الإتيـان بمثل القرآن ، فقد أنكرت جماعة المسلمين هـذا المذهـب إنكـارا شـديدا . وانهـالت على أصحابه بالتجريح بل بالاتهام بالخروج عن الإسلام جملة . وليس فى نيتى الاهتمـام بهـذه الاتهامات ، وإنما يعنينى الأقوال التى سعت إلى تفنيد المذهب ومناقشة أصحابه .

وربما كان أول من فعل ذلك ـ كما مر بنا ـ الجاحظ ، الـذى يبـدو أنـه سـاير أسـتاذه النظام فى شبابه ثم عدل إلى القول بالنظم ، وألف كتابا عنه ، رد فيه علـى أقـوال النظـام وغيره ممن وصفهم بالطعن فى القرآن .

وإليك الردود التى عثرت عليها مرتبة ترتيبا زمنيا .

١ ـ اعتمد أقدم رد وصل إلينا على التعارض القائم بين هذا المذهب وآية التحـدى فـى قوله تعالى : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يـأتون بمثلـه ولو كان بعضهـم لبعـض ظهـيرا ﴾[١] . وكـان الـذى أعطانـا هـذا الـرد أحمـد بـن يحيـى الراوندى[٢] (٢٩٨ / ٩١٠) .

وكشف الخطابى عـن هـذا التعـارض فصـرح أن اللّه أشـار فـى الآيـة إلى أمـر طريقـه التكلف والاجتهاد ، وسـبيله التـأهب والاحتشـاد . ولا تلائـم هـذه الصفـة المعنـى الـذى ذكروه فى الصرفة[٣] .

وأيد القاضى عبد الجبار الخطابى ، وذكر أن هذا المذهب يبطـل آيـة التحـدى ، لأنهـا تدل على تعذر مثله عليهم ، ولأنه لا يقال فى الجماعة ـــ إذا امتنـع عليهـا الشـىء ـــ : إن بعضها يكون ظهيرا لبعض ، لأن المظاهرة والمعاونة إنما تمكن مـع القـدرة ، ولا تصـح مـع

---

(١) سورة الإسراء ٨٨ . (٢) الانتصار ٢٨ .

(٣) بيان ٢١ . البغدادى ١٤٣ . الزملكانى ٥٤ . عائشة ٧٧ . الملا ٢٤٢ . عتر ٢٠٧ . خلـف اللّـه ٢٤٠ . كفافى ١٤٠ . البدرى ١٥٢ ـ ٣ .

العجز والمنع . ويبين هذا أنهم لو كانوا قادرين متمكنين لما أمكنهم أن يأتوا بمثله . ولا يكون كذلك إلا لمزية ذاتية فيه(١) .

وأضاف عبد القاهر الجرجانى أنه لا يقال للشيء يُمنعُه الإنسان بعد أن كان قادرا عليه ، وكان يكثر مثله منه : « إنى قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله ، ولو احتشدتم له، ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه » . وإنما يقال : « إنى أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه ، وأمنعكم إياه ، وأن أفحمكم عن القول البليغ » وما شاكل هذا . ونظيره أن يقال للأشداء : « إن الآية أن تعجزوا عن رفع ما كان يسهل عليكم رفعه(٢) » .

وأضاف الزركشى إلى قول القاضى عبد الجبار أن الآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم . ولو سُلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلة هذا الاجتماع منزلة اجتماع الموتى . وليس عجز الموتى بأمر كبير يُحتفَل بذكره(٣) .

ورفض د. عمر الملاحويش اعتماد الخطابى — وغيره — على الآية فى رد مذهب الصرفة. وعدّ ذلك حجة غير قاطعة ، وقال : إن الخطابى لم يذكر سوى أن هذا الرأى فى الإعجاز لا يتفق والآية ، وكان يجدر به أن يبين وجه عدم اتفاق رأى النظام معها ، ولكنه سكت عن ذلك . واستطرد : ربما كان الخطابى مسبوقا بحجته التى دفع بها الصرفة ، ولذلك اكتفى بمجرد ذكر الآية مع تعليق بسيط ، مما يدل على أنه قد أخذه عن غيره . ولو لم يكن الأمر كذلك لناقشة ، وأوضح حجته فى رفضه له .

وأعلن د. عمر أن الآية لا تصلح لاستشهاد الخطابى — ولو أن كثيرا من العلماء احتجوا بها - لأنها لا تتضمن ما يمنع القول بالصرفة . وإنما كل ما فيها أن الله أخبر فيها أن الإنس والجن لا يستطيعون - ولو تظاهروا - أن يأتوا بمثل القرآن - ولم يرد فيها سبب عدم الإتيان : أهو عدم القدرة على مجاراته أم الصرفة أم سبب آخر ؟(٤)

---

(١) المغنى ١٦ / ٣٢٣ ، ٣٢٥ . وانظر الرازى ٢ / ١١٩ - ٢٠ .

(٢) الشافية ١٣٦ ، ١٣٨ . دلائل ٦١٥ ، ٦١٨ . عتر ٢٠٧ . أبو على ١٣٣ .

(٣) البرهان ٢ / ٩٤ . الإتقان ٢ / ١٣٦ . الآلوسى ١ / ٢٨ . القطان ٢٦١ . الخطيب ٣٦٥ . الملا ٢٥٠ - ١ . الصباغ ٦٣ . عبد القادر ٦٧ . خلف الله ٢٤٢ . قمحاوى ٢٦ . عطا ٢٤٠ . زرزور ١٩٩ .

(٤) تطور ٢٤٧ ، ٢٥١ .

وحقا سبق ابن الراوندى الخطابى فى الاعتماد على الآية لرفض مذهب الصرفة . ولكن وصف الملا الخطابى بالسكوت وعدم إبانة وجه الاختلاف بين المذهب والآية ، وصف ينطبق على ابن الراوندى لا الخطابى ، الذى أبان وجه الاختلاف ، واعتمد كل من جاء بعده على بيانه ثم بنوا عليه .

٢ ـ وناقش أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٣٣٨ ـ ٤٠٣ / ٩٥٠ ـ ١٠١٣) مذهب الصرفة نقاشا عقليا فى كتاب « نكت الانتصار[١] » ، ثم أورد فى « إعجاز القرآن » الردود التالية :

. أورد الباقلانى قول من دافع عن الصرفة بأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لا يعجز عن نظم مثلهما ، فإذا قدر على ذلك قدر علىْ ضم القول الثانى إلى الأول ، وكذلك الثالث ، حتى يتكامل قدر الآية والسورة ، واستنتج أن العرب كانوا قادرين على الإتيان ـ على هذا النحو ـ بمثل القرآن ، لولا الصرفة .

ثم رد عليه بأنه لو صح ذلك لصح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت، أن ينظم القصائد ، وصح لكل ناطق ـ قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة ـ صوغ الخطب البليغة ، والرسائل العجيبة . ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن[٢] .

٣ ـ وذهب الباقلانى إلى أن الإعجاز لو كان بالصرفة لاستُغنى عن إنزال القرآن على النظم البديع ، وكان مهما حُط عن رتبة البلاغة أبلغ فى الأعجوبة[٣] .

وعبر القاضى عبد الجبار عن هذا الرد بأن قال : إن الصرفة توجب أن يكون الكلام المتوسط أو الركيك والكلام الفصيح ـ فى الإعجاز ـ بمنزلة واحدة[٤] .

وقال الحاكم الجشمى : لو كان الإعجاز بالصرفة لكان الأَدْون فى الفصاحة آكَد فى الإعجاز ، غير أنه لا يصح التحدث به[٥] .

وقال أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى (٥٤٨ / ١١٥٣) : لو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام أبلغ فى باب الإعجاز[٦] .

---

(١) ٢٨٦ ـ ٩٢ .
(٢) إعجاز ٢٩ . الملا ٢٤٨ ـ ٩ . عتر ٢١١ . منير ٩٨ .
(٣) إعجاز ٢٩ . بدوى ٤٨ . الحمصى ٧٥ . البوطى ١٥١ . الملا ٢٤٩ . الصباغ ٦١ . منير ٩٨ . زرزور ١٩٨ .
(٤) المغنى ١٦ / ٣٢١ ، ٣٢٥ . عتر ٢٠٨ .
(٥) ٤٤٦ .
(٦) مجمع ١٢ / ١٤٧ . الرازى ١٧ / ١٩٥ . الحمصى ٩٨ . البدرى ١٥٣ .

وقال عبد الكريم الخطيب : لو أن القرآن جاء معتمدا على هذا الإعجاز الحسى ، لما كان لمجيئه على تلك الصورة الكلامية معنى ، ولكان يمكن أن يستغنى عنه بأهون شىء ، يقطع ما بين النبى وقومه من جدل . كان يكفى أن يضع الله بين يدى نبيه حصاة ، ثم يأمر نبيه أن يدعو قريشا إلى حملها ، ثم يكون من تدبير الله أن يأخذ على أيدى القوم فلا تمتد إليها ، أو يأخذ على قواهم فلا تقدر عليها(١) .

٤ ـ وقال الباقلانى : لو كان المشركون قد صُرِفوا ، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يُعدَل به فى حسن النظم والبلاغة ، لأنهم لم يُتحدَّوا إليه ، ولم تلزمهم حجته . فلما لم يوجد فى كلام من قبله ما يماثله ، عُلِم أن دعوى الصرفة ظاهرة البطلان(٢) .

ورد القاضى عبد الجبار على قول الشريف المرتضى إن الله أعدم العرب العلوم التى يمكن معها الإتيان بالكلام الفصيح ، دون أن يذكر اسمه ، فقال : لست تخلو فيما ادعيت من وجهين :

ـ إما أن تقول : قد كان ذلك القدر من العلم حاصلا من قبل ، معتادا بينهم ، فمُنعوا منه عند ظهور القرآن .

ـ أو تقول : إن المنع من ذلك مستمر لم يجدّ [فى الإسلام] ، وإنهم لم يختصوا لاهم ولا من تقدمهم بهذا القدر من العلم .

فإن أردت الوجه الأول ، فقد كان يجب أن يكون قدر القرآن فى الفصاحة قدر ما جرت به العادة من قبل ، وإنما مُنعوا من مثله فى الإسلام . ولو كان الأمر كذلك لم يكن القرآن معجزا ، لكونه مساويا لكلامهم ، ولتمكنهم ـ من قبل ـ من صوغ مثله فى قدر الفصاحة .

وإن أردت الوجه الثانى ، فهو الذى يعول عليه ، لأنا نجعل للقرآن المزية فى الفصاحة، من حيث يحتاج إلى قدر من العلم لم تجر العادة بمثله لديهم .

---

(١) إعجاز ٣٦٦ . (٢) إعجاز ٣٠ . نكت ٢٨٩ . نهاية ٦ . ابن النقيب ٥٢٠ . بدوى ٤٨ . الحمصى ٧٥ . العمارى ٦ . البوطى ١٥١ . أبو زهرة ٨٠ . الملا ٢٤٩ . الصباغ ٦١ . عبد القادر ٦٦ . عتر ٢١٢ . منير ٩٨ . زرزور ١٩٨ . قصاب ٣١٨ . البدرى ١٥٤ .

ووصل هذا الرد إلى أقصى وضوح له عند الزملكانى (١٢٥٣/٦٥١) الذى قال فى عبارة مختصرة : لو كان الأمر كذلك لكان ينبغى أن يعارضوه بما قالوا من كلام فصيح قبل صرفهم عنه[١] .

كذلك قال العلوى اليمنى : لو حصلت الصرفة لكان فى كلام العرب السابق للقرآن أو اللاحق له ما يساويه[٢] .

٥ ـ وقال الباقلانى أيضا : لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن القرآن معجزا ، وإنما يكون المنع هو المعجز . ولا يتضمن القرآن ـ فى تلك الحالة ـ فضيلة فى نفسه على غيره[٣] .

وعبر القاضى عبد الجبار عن هذا الرد بأن الله لو كان منعهم من الإتيان بمثل القرآن ، لكان المعجز ما حدث لهم من المنع . وكان التحدى يجب أن يقع بذلك المنع لا بالقرآن حتى لو لم ينزل الله القرآن ، وجعل دليل نبوة محمد ﷺ امتناع الكلام عليهم ، على الوجه الذى اعتادوه ، لما اختلف وجه الإعجاز[٤] .

وجلىّ أن الباقلانى بذل الجهد كله فى دفع القول بالصرفة ، والرد على أصحابه . وعلى الرغم من ذلك ، هناك نص عنده ، يسوغ القول بأن الباقلانى من أصحاب رأى غريب من آراء الصرفة . قال وهو يصف موقف العرب إزاء التحدى القرآنى : « أَقْدَرهم [الله] على حد محدود ، وغاية فى العُرف مضروب ، لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزا ... ولو لم يكن جرى فى المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزا ، لكان يجوز أن تجرى عادات البشر بقدر زائد على ما أَلِفوه من البلاغة ، وأمر يفوق ما عرفوه[٥] » .

---

(١) البرهان ٥٣ . الإيجى ٣٥٣ . الشريف الجرجانى ٨ / ٢٤٩ . الآلوسى ١ / ٢٨ . الزرقانى ٢ / ٣١٤ . النبأ ٨١ .

(٢) الحمصى ١٣٤ . الخطيب ٨٠ .

(٣) إعجاز ٣٠ التمهيد ١٢٩ . الشافية ١٣٨ . دلائل الإعجاز ٦١٩ . ابن النقيب ٥٢٠ . الإيجى ٣٥٢ . الزركشى ٢/٩٤ . الشريف الجرجانى ٨ / ٢٤٩ . الإتقان ٢ / ١٣٧ . الآلوسى ١/٢٨ . بدوى ٤٩ . الحمصى ٧٥ . القطان ٢٦١ . حميدة ٣٥ . البوطى ١٥١ . الصابونى ٩٩ ، ١٤٢ . الخطيب ٣٦٥ . أبو زهرة ٨٠ . الملا ٢٤٩ ـ ٥١ . اتجاهات مطلوب ١٤٣ ـ ٤ . الصباغ ٦١ ، ٦٣ . عتر ٢٠٧ . منير ٩٨ . خلف الله ٢٤١ . عطا ٢٤١ . زرزور ١٤٩ . الزفزاف ١٣١ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٣٢٢ ـ ٣ ، ٣٢٥ .

(٥) إعجاز ٢٨٩ .

لم يردّ الباقلانى - إذن - عجز العرب فى هذا النص إلى حدود القدرة البشرية التى فطرهم اللّه عليها . ورأى أن اللّه خلقهم على هذه القدرة القاصرة لأن علمه سبق بالتحدى والمستوى القرآنى فخلقهم أدنى منه ، وتلك - فيما أرى - سقطة من الباقلانى أسوأ من القول بالصرفة .

٦ - وقال القاضى عبد الجبار : لا يكون المنع من الكلام إلا بما يجرى مجرى المنافى له ، أو بأمر يختص محله وآلته ، أى بما يضاد القدرة ، أو يغير حال الآلة والبنية . وما هذا حاله يؤثر فى صحة الكلام أصلا .

وقد علمنا أن من كان فى زمانه ﷺ من الفصحاء ، لم يتعذر الكلام عليهم . فلا يصح أن يقال : إنهم اختصوا بمنع لم يلحق النبى ﷺ(١) .

٧ - ورد القاضى عبد الجبار على من يقول : إن الدواعى توفرت عند العرب لمعارضة القرآن ، غير أن اللّه صرفهم بجنس من الدواعى ، قائلا : إن هذا يوجب إثبات مالا يعقل من الدواعى(٢) .

٨ - وأجرى القاضى عبد الجبار الحوار التالى بين من يؤمن بالصرفة ومن يرفضها . قال: فأما قول من يقول : إنه - تعالى - صرف هممهم ودواعيهم عن المعارضة ، فلذلك صار القرآن معجزا ،

فليس يخلو من أن يريد :

- أنهم لو لم تنصرف دواعيهم ، كان يمكنهم أن يأتوا بمثله .

- أو يقول : كان لا يمكنهم ذلك .

فإن قال : إن دواعيهم لو توفرت ما كان ذلك يمكنهم ؛

فذلك هو حال القرآن .

وإن قال : إن دواعيهم لو توفرت لأمكنهم أن يأتوا بمثله ، لكنهم صُرفوا عن الدواعى، وصُرفت هممهم عن ذلك ، واشتغلوا بالمحاربة ،

---

(١) المغنى ١٦ / ٢١٨ ، ٣٢٢ . عائشة ٧٣ . لاشين ٤٨٣ . وانظر الشافية ١٣٣ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٢٠ . عائشة ٧٥ . لاشين ٤٨٣

قيل له : ومن أين لك أنهم بهذه الصفة ؟ لكنهم علموا أن ذلك لا يواتيهم ، وضاق به ذَرْعهم ، فعدلوا إلى الطريقة الممكنة لهم ، وهى القتال .

فإن قال : لأنه لو كانت دواعيهم متوفرة لأتوا بمثله ،

قيل له : إنما كان يجب ذلك ، لو أمكنهم مثله فى قدر فصاحته .

فإن قال : لابد من أن يمكنهم ذلك ، لأن طريقة الكلام لا تختلف ،

قيل له : فهذا يوجب أن تعتمد فى قولك بالصرفة ، على أن لا مزية للقرآن ، وتعتمد فى أن لا مزية فيه ، على قولك بالصرفة .

فإن قال : إذا جاز ما قلته ، كجواز ما قلتموه ، فمن أين لكم أنهم عدلوا والدواعى إلى المعارضة قائمة ؟

قيل له : لأن هذه الطريقة تقتضيها حالهم ، التى كانوا عليها . فلم ندّع نحن إلا الأمر المعقول من العادة ، وأنت ادعيت الخروج عن العادة ، بقولك : إنهم صُرفوا عن الدواعى إلى المعارضة ؛ وهذا مما لابد فيه من دليل[1] .

٩ ـ وقال القاضى عبد الجبار : الحال فى الكلام أن يتفاضل ، وجعل الجميع جنسا واحدا ، وطريقة واحدة ، دون إجازة تعذر بعضه دون بعض على الفصحاء ، فاسد . والدليل على ذلك اعتراف الكفار بعظم شأن القرآن . فلو لم يكن للقرآن مزية فى رتبة الفصاحة ، لما كان معجزا ، لأنه من جنس ما يقدرون عليه ، وتمكنهم مساواته[2] .

وذهب الجرجانى إلى أنه من المحال أن يعظم العرب القرآن ، فيقولوا إن عليه لطلاوة ، وإن له الحلاوة .. وأن يبهتوا عند سماعه ، ويستكينوا له ، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه ، ويعلمون أنه لم يتعذر عليهم لأنهم لا يستطيعون مثله ، ولكن وجدوا فى أنفسهم شبه الآفة والعارض ، يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلا عليه[3] .

وأضاف الفخر الرازى إلى ذلك : بل كان يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم ، بعد أن كان مقدورا عليه لهم . كما أن نبيا لو قال : معجزتى أن أضع يدى على

---

(١) المغنى ١٦ / ٣٢٣ ـ ٤ .   (٢) المغنى ١٦ / ٣٢٢ ، ٣٢٥ .

(٣) الشافية ١٣٨ . دلائل ٦١٩ . العلوى ٣ / ٣٩٤ . الإتقان ٢ / ١٣٨ عن المراكشى . بدوى ٤٩ . الحمصى ٨٨ ، ١٥٨ . البوطى ١٥٢ . الخطيب ٣٦٥ . أبو زهرة ٨٠ . لاشين ٤٨٣ . عبد القادر ٦٧ . عتر ٢٠٨ ، ٢١٥ . البدرى ١٥٥ .

رأسى هذه الساعة ، ويكون ذلك متعذرا عليكم ، ويكون الأمر كما زعم ؛ لم يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه ، بل من تعذر ذلك عليهم . ولما علمنا أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها ، بطل ما قاله النظام[١] .

١٠ ـ وقال القاضى عبد الجبار : إن الذى ذكروه من صرف الدواعى والهمم يقتضى خروج الكفار عن العقل . لأنه لا يخلو الأمر لو انصرفت دواعيهم :

- من أن يكونوا كذلك مع علمهم بأنهم يقدرون على مثله ،
- أو من أن يكونوا كذلك مع فقد هذا العلم .

ولا يجوز ـ مع كمال عقولهم ـ أن لا يعرفوا ذلك . فإذا كانوا عالمين بذلك ، فدواعى المعارضة إذن قائمة . لأن العلم بقدرته ، مع التقريع ، ومع الحرص على إبطال أمر النبى ، هى الدواعى إلى المعارضة . وهذا يوجب التناقض بأن يقال مع ثبات الداعى : لا داعى لهم ، ومع وجود الاهتمام : صرفت هممهم . وهذا يوجب أحد أمرين :

- إما تناقض الدواعى .
- وإما إخراجهم من حد كمال العقل[٢] .

وعبر الفخر الرازى عن هذا الرد بقوله : إن نسيان الصيغ المعلومة فى مدة يسيرة يدل على زوال العقل . ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدى . فبطل ما قاله النظام[٣] .

١١ ـ وقال القاضى عبد الجبار : فإن قال الممارى : لولا أن الصرف هو الذى لأجله عدلوا عن المعارضة ، لكان لا يجب أن يجرى أمره على حد واحد ، مع أن فيهم المقدم ، الذى يعلم تعذر المعارضة ، وفيهم من لا يعلم .

قيل له : إن فيهم من جاء بمعارضة ركيكة . ومن لم يأت فلأنه علم من حالها ما وصفناه ، أو كان فى حكم العارف ، أو تابعا للعارف . فلذلك اتفقوا على العدول عن المعارضة . وهذا بيّن من حال الجمع العظيم .

---

(١) نهاية ٥ — ٦ . ابن النقيب ٥٢٠ . الحمصى ١٠٠ . العمارى ٧ . وليد ٣١٨ .
(٢) المغنى ١٦ / ٣٢٥ ، ٣١٤ .
(٣) نهاية ٦ . ابن النقيب ٥٢٠ . العلوى ٣ / ٣٩٤ ـ ٥ . الحمصى ١٠٠ ـ وليد ٣١٨ .

فلما رأى الأتباع الأكابر ضاق ذرعهم بالقرآن ، وعدلوا عن المعارضة إلى الأمور الشاقة ، تبعوهم فى هذه الطريقة ، لعلمهم بأنهم عن ذلك أشد عجزا . فلذلك استمرت أحوالهم على هذا الوجه ، لا للصرفة التى ظنوها .

ولولا أنهم علموا أن القرآن فى أعلى رتبة من الفصاحة ، الجامعة لشرف اللفظ وحسن المعنى ، حتى بهرهم ذلك ؛ لجاز أن يختلفوا فى المعارضة . فيكون فيهم من يكفّ، وفيهم من يحاول ، وفيهم من يأتى بما يزداد علمهم بعظم شأن القرآن عنده تأكيدا[١] .

١٢ ــ ورد القاضى عبد الجبار على من أجاز صرف اللّه العرب عن المعارضة وانصرافهم بأنفسهم جميعا مدعيا عدم التنافى بينهما فى النتيجة ، قائلا : إنهما ــ وإن لم يتنافيا على هذا الوجه ـ يتنافيان فى كون المخالف يزعم أنهم عدلوا عن المعارضة ــ مع إمكانها ـ بسبب الصرفة ، ونحن نقول : عدلوا لتعذرها ، وعِلْمهم بذلك من حالها[٢] .

١٣ ـ ذكر عبد القاهر الجرجانى أنه يلزم على القول بالصرفة أن تكون العرب قد تراجعت فى البلاغة والبيان ، وأن يكونوا قد نقصوا فى قرائحهم وأذهانهم . وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، من بعد أن أوحى إلى النبى ﷺ وتحدوا إلى معارضة القرآن[٣] .

فإن قالوا : إنه نقصان حدث فى فصاحتهم من غير أن يشعروا به .

قيل لهم : إن كان الأمر كذلك فلم تقم عليهم حجة ، لأنه لا فرق بين :

ـ أن لا يكونوا قد عدموا شيئا من الفصاحة التى كانوا يعرفونها لأنفسهم قبل التحدى بالقرآن .

ـ وبين أن يكونوا قد عدموا ذاك ثم لم يعلموا أنهم قد عدموه .

وذلك لأن الآية ـ بزعمهم ـ إنما كانت فى المنع من نظم قد كان لهم ممكنا قبل التحدى . ولا يكون منع حتى يُرام الممنوع ، ولا يتصوَّر أن يروم الإنسان الشىء ولا

---

(١) المغنى ٣٢٧/١٦ . ابن تيمية ٧٦/٤ . البوطى ١٥١ ـ ٢ . الخطيب ٣٦٩ ـ ٧٢ . عتر ٢١١ .
(٢) المغنى ١٦ / ٣٢٤ . منير ٢٠٣ ـ ٤ . قصاب ٣٢١ .
(٣) الشافية ١٣٣ . دلائل ٦١١ . ابن تيمية ٤ / ٧٧ . الزرقانى ٢ / ٣١٤ ـ ٥ . الصابونى ١٤٣ . عبد القادر ١٥٤ . عتر ٢١٠ . منير ١٢٩ . أبو على ١٣١ .

يعلمه ، ويقصد - فى قول له أو فعل - إلى أن يجىء به على وصف - وهو لا يعرف ذلك الوصف ، ولا يتصوره بحال من الأحوال[١] :

وإذا جعلناهم لا يعلمون أن كلامهم الذى يتكلمون به اليوم قاصر عن الذى تكلموا به أمس ، وأن قد امتنع عليهم فى النظم شىء كان يواتيهم ، استحال أن يعلموا أن لنظم القرآن فضلا على كلامهم الذى يستمع منهم ، وعلى النظم الزاهر الباقى لهم ، لأنهم ما زالوا يعتقدون أن كلامهم باق على ما كان عليه فى القديم ، لم ينقص و لم يدخله خلل[٢] .

وإذا لم يتصوَّر أن يعلموا أن للقرآن مزية على ما يقولونه ، لم يتصوَّر أن يحاولوا تلك المزية . وإذا لم يحاولوها ، لم يحسوا بالمنع عن نيلها . وإذا لم يحسوا بالمنع ، لم تقم عليهم حجة به[٣] .

والذى يعقل فى هذه الحال أن يعتقدوا أنهم قد عارضوا القرآن ، وتكلموا بما يوازيه[٤] .

ويلزم أن تكون أشعار شعراء النبى ﷺ التى قالوها فى مدحه وفى الرد على المشركين، ناقصة متقاصرة عن شعرهم فى الجاهلية ؛ وأن يُشَك فيما روى عن قوله ﷺ لحسان : « قل وروح القدس معك » لأنه لا يكون مُعانا من عند اللّه ، وهو يعدم مما كان يجده من قبل كثيرا[٥] .

ويلزمهم أن يقضوا فى النبى ﷺ بما قضوا فى العرب ، من دخول النقص على فصاحتهم، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يُمنَع شطرا من بيانه . ذاك لأنهم - إذا لم يقولوا ذلك - حصل منه أن يكون ﷺ قد تلا عليهم سورة التحدى ، فى حال هو يستطيع فيها أن يجىء بمثل القرآن . اللهم إلا أن يقتحموا جهالة أخرى ، فيزعموا أنه قد كان فى الأصل دونهم فى الفصاحة . وإذا قالوا ذلك كانوا قد خرجوا من قبيح القول إلى

---

(١) الشافية ١٣٣ - ٤ . دلائل ٦١٢ . أبو على ١٣٢ .
(٢) الشافية ١٣٤ . دلائل ٦١٢ . البدرى ١٥٤ . أبو على ١٣٢ .
(٣) الشافية ١٣٤ . دلائل ٦١٣ .
(٤) الشافية ١٣٤ . دلائل ٦١٣ . أبو على ١٣٢ .
(٥) الشافية ١٣٣ . دلائل ٦١١ - ٢ . عتر ٢١٠ . منير ١٢٩ . أبو على ١٣١ .

مثله . فلم يشك أحد أنه ﷺ لم يكن منقوصا فى الفصاحة ، بل الذى أتت به الأخبار أنه كان أفصح العرب[١] .

وأضاف الفخر الرازى أنه يلزم عن ذلك أن يكون الفرق بين كلامهم بعد التحدى وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدى والقرآن . ولما لم يكن كذلك بطلت الصرفة[٢] .

ورد ابن تيمية (٧٢٨ / ١٣٢٨) بأن العرب عرفوا أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماع القرآن وبعد سماعه ، ولا وجدوا أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا ـ عليه السلام ـ عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه[٣] .

١٤ ـ وقال عبد القاهر الجرجانى : لو أن العرب كانوا قد مُنعوا منزلة من الفصاحة كانوا عليها ، لكان ينبغى أن يعرفوا ذلك من أنفسهم . ولو عرفوه لذكروه ، واتهموا النبى بأنه قد سحرهم ، كما نسبوه إلى السحر فى كثير من الأمور . وإذ لم يُرو أنه كان منهم قول فى هذا المعنى ، كان ذلك دليلا على أنه قول فاسد[٤] .

وقال الزملكانى : هذا خُلْفٌ من القول ، إذ لو كان كذلك ، لكان ينبغى أن يتعجبوا من حالهم دونه . فإن من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين ـ بحبس الله أيديهم ـ لا يُعجَب منه بل من حاله[٥] .

وقال العلوى اليمنى : لو كانوا صُرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم . ولو علموا ذلك ، لوجب أن يتذاكروا فى حال هذا المعجز على جهة التعجب . ولو تذاكروه ، لظهر وانتشر على حد التواتر . فلما لم يكن ذلك ، دل على بطلان مذهبهم[٦] .

١٥ ـ وقال عبد القاهر : من حق المنع ـ إذا جُعل آية وبرهانا ولا سيما للنبوة ـ أن يكون فى أظهر الأمور ، وأكثرها وجودا وأسهلها على الناس ، وأخلقها بأن تبين لكل

---

(١) الشافية ١٣٤ ـ ٥ . دلائل ٦١٣ ـ ٤ . عتر ٢١٠ .
(٢) نهاية ٦ . قصاب ٣١٨ . (٣) الجواب ٧٧ .
(٤) الشافية ١٣٥ ، ١٣٨ ـ ٩ . دلائل ٦١٤ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ . الإيجى ٣٥٢ . الشريف الجرجانى ٨ / ٢٤٩ . عتر ٢١٤ . منير ١٢٥ . البدرى ١٥٤ .
(٥) البرهان ٥٣ . الزرقانى ٢ / ٣١٠ ، ٣١٤ . النبأ ٨١ . الصابونى ١٤٣ . الخطيب ٣٦٦ .
(٦) الطراز ٣ / ٣٩٢ . الآلوسى ١ / ٢٨ .

راءٍ وسامع أنْ قد كان منعٌ ، لا أن يكون المنع من خفى لا يُعرف إلا بالنظر وبعد الفكر، ومن شيء لم يوجد قط و لم يُعهَد ، وإنما يُظَن أنه يجوز أن يكون[١] .

١٦ - وأخيرا جادل الجرجانى أصحاب الصرفة جدالا عقليا فقال : ينبغى أن يقال لهم: ما هذا الذى أخذتم به أنفسكم ؟ وما هذا التأويل المنكر فى عجز العرب عن معارضة القرآن ؟ وما دعاكم إليه ؟ وما أردتم منه ؟ أأن يكون لكم قولٌ يحكَى ، وتكونوا أمة على حدة ، أم قد أتاكم فى هذا الباب علم لم يأت الناس ؟

فإن قالوا : أتانا فيه علم ؟

قيل : أفمن نظرٍ ذلك العلم أم خبر ؟

فإن قالوا : من نظر .

قيل لهم : فكأنكم تعنون أنكم نظرتم فى نظم القرآن ونظم كلام العرب ، ووازنتم فوجدتموه لا يزيد إلا بالقدر الذى لو خلّوا والاجتهادَ وإعمال الفكر ، و لم تفرَّق عنهم خواطرهم عند القصد إليه ، لأتوا بمثله .

فإن قالوا : كذلك نقول .

قيل لهم : فأنتم تدّعون الآن أن نظركم فى الفصاحة نظر لا يغيب عنه شيء من أمرها، وأنكم قد أحطتم علما بأسرارها ، وأصبحتم ولكم فيها فهم وعلم لم يكن للناس قبلكم.

وإن قالوا : عرفنا ذلك بخبر .

قيل : فهاتوا عرفونا ذلك .

وأنّى لهم تعريف ما لم يكن ، وتثبيت ما لم يوجد[٢] .

١٧ - من الغريب أن يزعم بعض أصحاب الصرفة أنها كانت صرفا لدواعى المعارضة. فقد عنى الكاتبون عن الإعجاز - منذ أولهم إلى آخرهم - بالحديث عن توفر الدواعى المتعددة والمتنوعة . وأفاض فى ذلك إفاضة بعيدة المدى القاضى عبد الجبار .

---

(١) الشافية ١٤٠ . دلائل ٦٢١ . العمارى ٧ .
(٢) الشافية ١٤١ . دلائل ٦٢٣ . أبو على ١٣٥ .

وقد اتخذ الحاكم الجشمى من هذه الظاهرة سندا لإبطال القول بالصرفة[١] .

١٨ ـ قال محمد بن أحمد القرطبى (٦٧١ / ١٢٧٣) : القول بالصرفة فاسد لأن إجماع الأمة ـ قبل حدوث المخالف ـ أن القرآن هو المعجز[٢] .

١٩ ـ قال الزركشى : لو كان الإعجاز بالصرفة ، لكان المعجز هو الله ، حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله[٣] . يريد أن القرآن ـ فى هذه الحالة ـ لا يكون معجزا .

٢٠ ـ وقال الزركشى أيضا : يلزم من القول بالصرفة فساد ، هو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى ، وفى ذلك خرق لإجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة القرآن أبدا[٤] .

ولعله استفاد هذا الرد من رواية ياقوت أن القول بالصرفة حمل جماعة من الأدباء ، على الاعتقاد بأنها مقصورة على زمن التحدى ، فدفعهم هذا إلى النظم على أسلوب القرآن[٥] .

وهكذا قال عبد الحسيب طه حميدة : لو كان كذلك ، لزالت الصرفة بزوال زمن التحدى وانتشار الإسلام ، ولأصبح فى مكنة العلماء والبلغاء أن يقولوا مثله ، لخلوه فى ذاته من صفة الإعجاز ، وعدم الحاجة ـ بعد موت النبى واستقرار الدين ـ إلى صرف الناس عن الإتيان بمثل هذا القرآن[٦] .

ورفض عمر الملاحويش هذا الرد ، وأعلن أنه يعتقد أنه ليس فيه ما يبطل القول بالصرفة . وذلك لأن آيات التحدى فى سورة الإسراء وغيرها ، لم تقترن بزمن معين ، كما لم تختص بجماعة دون أخرى ، ولا بجيل معين . وإنما جاءت مطلقة ، والمطلق يؤخذ على إطلاقه . فما دام القرآن يتلى ، ومادام هناك تحد ، فالعجز عن الإتيان بمثله حاصل[٧].

---

(١) ٤١٦ . (٢) الجامع ١ / ٧٥ . الإيجى ٣٥٢ . الزركشى ٢/ ٩٤ . الشريف الجرجانى ٨ / ٢٤٩ . الإتقان ٢ / ١٢٧ . الآلوسى ١ / ٢٨ . الخطيب ٣٦٤ . الملا ٢٥٠ . الصباغ ٦٣ . عبد القادر ٦٧ . عتر ٢١١. قمحاوى ٢٦ . عطا ٢٤٠ . زرزور ١٩٩ .

(٣) البرهان ٢ / ٩٤ . الإتقان ٢/١٣٧. القطان ٢٦١ . الملا ٢٥٠ ـ ١ . عبد القادر ٦٧ . قمحاوى ٢٦ . البدرى ١٥٣ . (٤) البرهان ٢ / ٩٤ . الإتقان ٢ / ١٣٧ . الملا ٢٥١ ـ ٢ . الصباغ ٦٣ . عطا ٢٤٠ . زرزور ١٩٩ . كفافى ١٣٩ ـ ٤٠ .

(٥) معجم ٣ / ١٤٠ . (٦) مع القرآن ٣٥ . (٧) تطور ٢٥٢ .

٢١ ـ قال الآلوسي : وقع التحدى بالقرآن على كل العرب . فلو كان الإعجاز بالصرفة ، لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ـ ضرورة ـ تحقق الصرفة بالنسبة إليه . فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له . والمعتاد لكلٍّ ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه . فيلزم أن يكون القرآن كذلك ، وليس الأمر كذلك[١] .

٢٢ ـ ذهب مصطفى صادق الرافعي إلى أن مذهب النظام في الصرفة دون قدره ، بل دون علمه ، بل دون لسانه . وهو ـ عندنا ـ رأى لو قال به صبية المكاتب ـ وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه ـ لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه ، إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ، ليوهموا أنهم قد عرفوا[٢] .

٢٣ ـ وقال الرافعي أيضا : لا يختلف القول بالصرفة عن قول العرب فيه : ﴿ إن هو إلا سحر يؤثر ﴾[٣] . وهذا زعم رده الله على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول به ضربا من العمى : ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾[٤] فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد[٥] .

وأبان محمد أبو زهرة وجه الشبه بين القول بالصرفة والاتهام بالسحر ، فذكر أن الامتناع عن المماثلة في كليهما من خارج الشيء لا من ذاته[٦] .

٢٥ ـ أورد د . البوطى رأى رد إعجاز القرآن إلى صفات ذاتية فيه ورأى من رده إلى الصرفة ، ثم عقب قائلا : وأنت ـ إذا تأملت في كلا القولين ، وفيما هو أقرب إلى العقل والفهم منهما ـ أدركت أن تعريف النظام ومن شايعه لا معتمد من المنطق أو العقل له . وقد سخر كثير من الباحثين ـ ومنهم الجاحظ ـ بهذا التفسير للإعجاز[٧] .

وتابعه د. عتر فوصف هذا المذهب بأنه زعم لا دليل عليه من العقل أو النقل[٨] .

٢٤ ـ ذهب محمد الزفزاف إلى أن القول بالصرفة طريقا للإعجاز قول من يريد محاجة مجادليه بأقرب طريق[٩] .

---

(١) روح ١ / ٢٨ .
(٢) إعجاز ١٦٣ . العمارى ٥٥ . البدرى ١٤٠ .
(٣) سورة المدثر ٢٤ .
(٤) سورة الطور ١٥ .
(٥) إعجاز ١٦٤ . العمارى ٥٥ ، ٦٠ . الصابونى ٩٩ . خلف الله ٢٤٢ . البدرى ١٤٠ . الزفزاف ١٣١ .
(٦) المعجزة ٥١ ، ٨١ . خلف الله ٢٤٢ .
(٧) التعريف ١٣١ .
(٨) من روائع ١٥٠ .
(٩) بينات ٢١٦ .

٢٥ ـ قال محمد على الصابونى : لو صح القول بالصرفة ، لكان ذلك (تعجيزا) لا (إعجازا) لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام[١] .

٢٦ ـ وقال الصابونى : لو كان هناك صارف زهّدهم فى المعارضة من كسل أو ملل، لما وقفوا فى وجه نبى الإسلام ، ولما آذوه وأصحابه ... إلى غير ما هنالك من دوافع جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام[٢] .

٢٧ ـ قال عبد القادر أحمد عطا : إن كان صرف الله عباده عن معارضته أمرا مقررا فى الإسلام ، فلم لم يصرف العلماء عن معارضة خلقه فى العصر الحاضر ؟

ألا تراهم فى معاملهم راحوا يتحدثون عن الإنسان الآلى ، وعن بناء الأجنّة فى غير أرحام الأمهات ، وعن الأمطار الصناعية ، و لم يُصب الله عالما منهم بالجنون ولا بالمغس الكلوى ، كلما توجه إلى معمله ليصنع خَلقا كخلق الله[٣] .

واعتمد د. حسن ضياء الدين عتر على أقوال الجرجانى ، وأضاف إلى الآية الآية ٢٣ من سورة البقرة ، ثم أعلن أن هذه الآية ونظائرها فى القرآن تدل على أنه معجز بنفسه لمزايا وخصائص استقرت فيه ، تقصُر طاقة البشر وقدرتهم على مضاهاتها[٤] .

* * *

وتبين لنا هذه الجولة أن هذا الرد تردد على ألسنة معظم من عارضوا الصرفة ، وأن تفسير الزركشى هو الذى كان له الغلبة ، وأن عبد القادر أحمد عطا ود. عدنان زرزور نسباه خطأ إلى السيوطى الذى كان قد اقتبسه منه دون عزو ، وأن عمر الملاحويش انفرد بعدم اعتبار الآية . وتجاهل الملا توضيح الخطابى للتناقض بين الآية والقول بالصرفة ، فاتهمه بأنه لم يفعل ذلك .

---

(١) التبيان ١٤٢ . الشاعر ١٠١ .
(٢) التبيان ١٤٢ ـ ٣ .
(٣) أسرار التكرار للكرمانى ٢٤١ .
(٤) بينات ٢٠٧ .

الفصل الثالث
تعليل القول بالصرفة

لما كان مذهب الصرفة ـ وبخاصة عند النظام ـ فيه ما يصدم جمهور المسلمين ، فقد حاول بعض الباحثين أن يفسروه ، ويكشفوا عن العوامل التى دفعت إلى اعتناقه .

نقل د. على العمارى أن أبا بكر أحمد بن على المعروف بالخطيب البغدادى (٣٩٢ ـ ٤٦٣ / ١٠٠٢ ـ ١٠٧٢) ذكر فى كتابه « أصول الدين » : « أن النظام أعجب بقول البراهمة فى إبطال النبوات . ولكنه خاف السيف فلم يجسر على إظهار ذلك . فأنكر إعجاز القرآن فى نظمه ، وأنكر معجزات النبى من نحو انشقاق القمر ، ليتوصل بذلك إلى إنكار النبوة[1] » .

وقد كشف أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٦٢ ـ ٤٤٠ / ٩٧٣ ـ ١٠٤٨) عن رأى البراهمة فذكر أن الهنود يعتقدون أن كتابهم الذى سماه « بيذ » معجز . قال : ليس « بيذ » على النظم السائر بل هو بنظم غيره . فمنهم من يقول : إنه معجز ، لا يقدر أحد منهم أن ينظم مثله . والمحصِّلون منهم يزعمون أن ذلك فى مقدورهم لكنهم ممنوعون عنه احتراما له[2] .

وعقب محمد أبو زهرة على هذا القول قائلا : لم يبين البيرونى وجه المنع : أهو منع تكليفى يسبقه الإيمان بهذه الكتب ، وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواح أخرى ، أم هو منع تكوينى بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ؟ والأخير هو الظاهر ، لأنه هو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم ، وما اشتهر من أن القول بالصرفة نبع فى واديهم[3] .

---

(١) حول ٦١ ـ ٢ .
(٢) تحقيق ٨٩ . أبو زهرة ٧٦ . وانظر خليل ١٥٠ ـ ١ ، أبو موسى ٣٥٨ .
(٣) المعجزة ٧٦ . أبو موسى ٣٥٨ .

ورأى أن رأى البراهمة فى كتابهم الذى نعرفه نحن الآن باسم « الفيدا » هو السبب وراء قول بعض المفكرين المسلمين بالصرفة . فقد ذهب إلى أن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة فى كتابهم الفيدا ، وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ، ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم ، ويقول جمهور علمائهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، لأن « براهما » صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .

وعندما دخلت الأفكار الهندية - فى عهد أبى جعفر المنصور ومن والاه من حكام بنى العباس - تلقفها الذين يحبون كل وافد من الأفكار ، ويركنون إلى الاستغراب فى أقوالهم ، فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبقوه على القرآن ، وإن كان لا ينطبق . فقال قائلهم : إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله صرفهم عن أن يأتوا بمثله[1] .

ورفض د. أبو موسى تعقيب أبى زهرة . لأن عبارة (خاصة البراهمة) - فى رأيه - ليس فيها هذا الوجه الذى يعنى الصرف ، وليس فيها ما يقرب منه . وإنما هى صريحة من أنهم لم يقولوا مثل أشعار الفيدا احتراما لها . وهذا غير ما نحن فيه ، لأن الصرفة - عند علمائنا - تعنى أمرا إلاهيا . ثم إن كلام البراهمة فى الفيدا كان محل سخرية العقل الإسلامى . وقد كانوا يذكرونه مثلا للتسليم بعدم الحجة ، ومثلا للمذهب الذى لا مستنصر له ، لأن الذين قالوا به لا حجة لهم . وكتاب الفيدا مثل كتاب زرادشت ومانى ، فيها - عند علمائنا - حكم وتهوس ، فكيف يستمدون منها وجها لبيان الحجة فى القرآن ؟

ولو كان الأمر ما ذهب إليه الشيخ الفاضل أبو زهرة ما سكت عنه الجاحظ ولا غيره. ثم إن النظام أحكم من أن يواجه فى حومة جدال مستعر بكلام البراهمة الهش والذى يعرفه أهل زمانه ، ويعرفون قدره[2] .

وأعلن أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى (٤٧١ / ١٠٧٨) أن الذى يقع فى الظن أن يكون الذى ابتدأ القول بالصرفة ، ابتدأه على توهم أن التحدى كان إلى أن يعبَّر عن أنفُس معانى القرآن بمثل لفظه ونظمه ، دون أن يكون قد أطلق لهم وخُيِّروا فى

---

(١) المعجزة ٧٦ . وانظر عباس ١١ ، ١٦ .

(٢) الإعجاز ٣٥٨ - ٩ .

المعانى كلها . ذاك لأن فى القول بها ـ على غير هـذا الوجـه ـ أمـورا شـنيعة ، يبعـد أن يرتكبها العاقل[1] .

وقال العلوى اليمنى : الذى غر هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة ما يرون مـن الكلمـات الرشيقة ، والبلاغات الحسنة ، والفصاحات المستحسنة ، الجامعة لكل الأساليب البلاغيـة، فى كلام العرب ، الموافقة لما فى القرآن . فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ما ذكرنا مـن تلك الأساليب البديعة لا يقصر عن معارضته ، خلا ما عرض من منع اللّه إياهم[2] .

وقال محمد رشيد رضا : هذا رأى كسول ، أحـب أن يريـح نفسـه مـن عنـاء البحـث وإحالة قدح الفكر فى هذا الأمر[3] .

وتابعه د. عدنان زرزور فقال : القول بالصرفة من باب التفلسف الـذى يريـد صاحبـه إراحة نفسه من عناء البحث وإحالة الفكر[4] .

ومال د. محمد زغلول سلام إلى أن هذا المذهب صادر عن عقيدتين فى نفس النظام :

الأولى : عقيدته فى التوحيد والعدل على مذهب المعتزلة ، ونفى صفات اللّه عن ذاتـه. ومن ثم فلا كلام للّه فى الشكل اللفظى المعهود من الخلق ، وإنما كلام اللّـه وحـى وإلقـاء فى الرُّوع .

الثانية : مذهبه القياسى التجريبى الطبيعى فى التفكير ، وتزمته فى تطبيقه علـى القـرآن وبيانه[5] .

وتابعه د. منير سلطان ، فمال إلى أن مذهب الصرفة نابع من مبدأ العدل الإلاهى عنـد المعتزلة . وفحواه أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ولكنه لا يقدر على مالا يخطر بباله ، أى أن قدرة الإنسان مقيدة بعلمه . فالإنسان ـ عنـد النظـام ـ يعلـم الشـىء ، ثـم تريده نفسه ، ثم تقوم قدرته بتنفيذه . ودفعه ذلك إلى أن يتصور الصرفة ـ عنـد النظـام ـ انصرافا اختياريا أكثر منها صرفة جبرية ، ورجوعا بعد شعور بـالعجز أكثر منهـا تحويـلا للعجز إلى إعجاز[6] .

---

(١) الشافية ١٣٣ . دلائل ٦١١ . (٢) الطراز ٣ / ٣٩٢ . وانظر الحمصى ٢٤

(٣) تفسير المنار ١ / ١٩٨ . شبهات ٩٧ . البدرى ١٣٩ . الزفزاف ١٣١ .

(٤) القرآن ١٩٨ . (٥) أثر القرآن ٧١ . أبو زيد ٢٦٤ .

(٦) إعجاز ٥٢ . أبو زيد ٢٦٤ .

وقال د. محمد عبد الله دراز عن مذهب الصرفة : وهو ـ وإن كان اعترافا فى الجملة بصحة الإعجاز ـ إلا أنه لا يقول به إلا أعجمى أو شبهه ممن لم يذق للبلاغة طعما(١) .

وتابعه محمد على الصابونى فقال : ولعمرى هذا قول من لم يتذوق طعم العربية ولا غرف أسرارها ، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشورا لا تسمن ولا تغنى من جوع(٢) .

ونسب عبد الحسيب طه حميدة إلى بعض من ذهب إلى الصرفة الزعم بأن عجز القادر أقوى دلالة على التأييد لمحمد ﷺ من عجز الضعيف(٣) .

وقال البوطى : إن تفسير إعجاز القرآن ـ كما يراه النظام ـ هو فى الحقيقة أقعد فى باب الإعجاز ، وأدعى إلى معرفة أنه من كلام اللّه ، إذ العجز عن الإتيان بالشىء المستطاع أعجب من العجز عن الإتيان بالأمر الرفيع الذى لا يدرك ولا يستطاع(٤) .

ورأى عبد القادر أحمد عطا مذهب الصرفة نابعا من الفكر اليهودى ، لأن معناه الازتداد إلى الفكر السائد فى سِفْر التكوين ، الذى يصف اللّه ـ سبحانه ـ بالبداء . ويقول: أو ليس هذا القول وثيق النسب بهذا الفكر اليهودى المشبوه ؟ أو ليس التحدى ثم الصرفة على هذه الصورة عبارة عن ضرب من ضروب الخداع والهروب من الحقيقة ، جلّ اللّه عن مثله(٥) .

وعاب أحمد أبو زيد تصور د. منير سلطان للصرفة عند النظام . ورجح أنه لم يلتفت إلى مانسبه الأشعرى إلى النظام من إحداث اللّه منعا وعجزا فى العرب . ولو كان رأى النظام كما تصوره د. منير لما أنكر إعجاز القرآن بالنظم ، ولما كان لرد الجاحظ وابن الخياط عليه معنى .

وذهب أبو زيد إلى أنه ليس ببعيد أن تكون نظرية الصرفة قد تكونت فى غمار المعركة التى واجه فيها المعتزلة أصنافا من الخصوم ، وكان النظام من فرسانها . فقد رأى العلماء ـ على اختلاف اتجاهاتهم ـ يعتمدون على كلام العرب وشعرهم ، فى تفسير القرآن والاستشهاد على بلاغته . فخشى أن يقول أحد الخصوم : كيف تستشهدون بكلام

---

(١) النبأ ٧٨ . الصباغ ٦٢ .   (٢) التبيان ٩٩ .   (٣) مع القرآن ٣٥ .
(٤) من روائع ١٥٢ .   (٥) أسرار التكرار ـ الدراسة ٢٣٩ ـ ٤٠ .

العرب على بلاغة القرآن ، ثم تقولون : إنهم عاجزون عن مثله ؟ ولما كان النظام يميل فى تفكيره إلى المنهج القياسى التجريبى الواقعى ، وكان قد عاش فى وقت لم تكن البلاغة القرآنية قد عُرفت فيه ، بالقدر الذى يجعل المفكر الواقعى قادرا على الدفاع عن إعجاز القرآن فى النظم ، بحجج واقعية ، توضح للخصوم - فى جلاء - الفرق بين النظم القرآنى وكلام العرب الفصحاء ؛ لما كان الأمر كذلك تبنى النظام نظرية الصرفة . واستدل على ذلك بلجوء الجاحظ إليها فى معرض رده على الدهرية(١) .

أثر الصرفة

كان أبو محمد عبد اللّه بن محمد المعروف بابن سنان الخفاجى (٤٢٣ — ٤٦٦ / ١٠٣٢ - ١٠٧٣) أول من فطن إلى صدى مذهب الصرفة فى الحياة الثقافية عند العرب. ذكر ياقوت أنه قال فى تضاعيف كتاب له ألفه فى الصرفة : حمل هذا القول جماعة من الأدباء على أن يصوغوا على أسلوب القرآن . وأظهر ذلك قوم ، وأخفاه آخرون(٢) .

أما مصطفى صادق الرافعى فرأى له آثارا مدمرة . فلولاه لكان لنا اليوم كتب ممتعة فى بلاغة القرآن وأسلوبه وإعجازه اللغوى وما إلى ذلك(٣) .

واتجه إلى النقيض منه محمد أبو زهرة ، الذى أعلن أن هذا المذهب أدى إلى إنشاء علوم البلاغة فى ظل القرآن . إذ اتجه الكاتبون - للرد عليه — إلى بيان أسرار البلاغة فى هذا الكتاب المبين . فكان هذا الباطل سببا فى خير كثير(٤) .

ونحتْ نحوه د. عائشة عبد الرحمن التى صرحت أن هذا المذهب أوقع فى شبهة أن إعجازه البلاغى غير معتبر . وذلك ما التفت إليه أعلام المعتزلة أنفسهم وخشوه . فتجردوا للاحتجاج له ، وجهدوا فى تقريره(٥) .

وذهب د. وليد قصاب إلى نقيض ما ذهب إليه ابن سنان . فصرح بأن هذا المذهب كان فيه هدم لأمل كل من تحدثه نفسه بمعارضة القرآن ، لأنه ممنوع من ذلك بقدرة

---

(١) المنحى ٢٦٥ - ٦ .

(٢) معجم الأدباء ٣ / ١٣٩ — ٤٠ . وأعتقد أن تحريفا ألمّ به . العمارى ٤٧ ، ٧٤ .

(٣) إعجاز ١٦٣ - ٤ . العمارى ٥٦ - ٧ .

(٤) المعجزة ٨٢ . الدبل ٣٠ . وانظر العمارى ٥٦ . (٥) الإعجاز ٧٣ .

إلاهية، لا يستطيع أن يتخطاها أو يتغلب عليها . فبقى القرآن المعجزة الأبدية الخالدة ، التى لا يمكن أن ينجح أحد فى معارضتها[١] .

الصرفة والمذاهب

وتبرز ظاهرة واضحة فى الحديث عن الصرفة . فإلى جانب الرجال الذين نسبت الاتجاهات المختلفة لها إليهم صراحة ، نجد كثيرا من الكتاب ينسبونها إلى فئات معينة ، مما قد يوحى بأنها عامة فيها ، وإن كان بعضهم اتخذ شيئا من الاحتياط .

فنسبها القرطبى إلى بعض القدرية[٢] . ووضع ابن كثير أهل السنة فى مقابل المعتزلة ، وجعل الأولين يقولون بأن القرآن معجز فى ذاته ، والآخرين يقولون بالصرفة[٣] . ونسب الصابونى الصرفة إلى بعض المعتزلة وبعض الشيعة [٤] ، والبدرى إلى كثيرين من أئمة المعتزلة والشيعة [٥] ، والشاعر ـ بل كثير من الكتاب ـ إلى المعتزلة وحدهم[٦] .

والحق إن هذه الأقوال جميعها فيها شىء من البعد عن الصواب . فلم يعتنق الصرفة كل المعتزلة ، ولا كل الشيعة ، ولا كل الإمامية منهم . ولا اقتصر تغلغلها على هاتين الفرقتين ، بل تسربت إلى أكثر من رجل من الأشعرية من السنة .

وأعتقد أن ما أوردته فى المقدمة من حديث العمارى يصور مشاعر جماعة المسلمين تصويرا دقيقا . صرح أنه منذ بدأ يقرأ فى كتب الكلام ، وهو يعجب أشد العجب أن يقول عالم من علماء المسلمين هذه القالة فى القرآن الكريم . وكان ـ بادئ الأمر — يظن أن أحدا من الأشاعرة لا يقول بهذا المذهب ، وإنما هو رأى اعتزالى . وذكر ما كان يلقّنه من بعض شيوخه فى عهد الطلب ، من أن القائلين به كفار[٧] .

---

(١) التراث ٤٧ .

(٢) الجامع ١ / ٧٥ .

(٣) التفسير ١ / ٦١ . عائشة ٧٨ .

(٤) التبيان ١٤٢ .

(٥) حقائق ١٥١ .

(٦) القرآن ١٠١ .

(٧) حول ٥٤ .

الشك فى الصرفة

دفع استنكار جماعة المسلمين للصرفة أو لبعض اتجاهاتها المحدثين من المفكرين إلى الشك فى صحة عزوها إلى من عزيت إليهم .

فقال الزرقانى : أشك كثيرا فى نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء . ويبدو لى أن الطعن فى نسبتها إليهم ، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم ، أقرب إلى العقول ، وأقوى فى الدليل ، لأن ظهور وجوه الإعجاز فى القرآن من ناحية ، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى ، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأى الآثم إليهم ، ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول اللّه ، وعلى أصحابه ، وعلى الأئمة والعلماء . فلم لا يكون هذا منه[1] ؟.

وقال محمد حنيف فقيهى : نحن ـ مع استبعادنا كل البعد على جماعة المعتزلة ، وعلى النظام نفسه ، أن يكون صاحب هذا المذهب ، نستنكر ـ والمعتزلة أهل منطق وحكمة وفلسفة ونظر وبحث وتعمق وكشف عن الحقائق ـ أن ينسب إليهم هذا المذهب ، الذى يدل على التواكل والضعف ، ويكشف عن أفق ضيق ، وتفكير عقيم . ونعتقد ـ على ضوء ما نفهم فى علماء المعتزلة من ثاقب الرأى وبعد النظر ـ أنه مدسوس عليهم ، لصيق بهم ، لأنهم قوم كان لهم خصوم ينفسون عليهم مكانتهم الفكرية[2] .

وقصر الدكتور طه الحاجرى الشك على النظام فقال : ليس يبعد عندنا أن يكون رأى النظام فى الصرفة مثل رأى الجاحظ ، وإنما حرّفه خصومه بعدُ على النحو الذى رأينا[3] .

وماثله العمارى مع بعض احتراز فقال : لولا أنى رأيت الجاحظ يعرض لهذا المذهب فى كتاب الحيوان ، لكان لى مندوحة فى الشك والتردد الكثير فى نسبة المذهب للنظام[4].

---

(١) مناهل ٢ / ٣١٥ .

(٢) نظرية ١٠٧ .

(٣) الجاحظ ٣٢٣ .

(٤) حول ٥٩ ، ٦٣ .

خاتمة

تكشف لنا هذه الجولة عن تصحيح أخطاء وقع فيها بعض الباحثين الذين درسوا الصرفة أو تحدثوا عنها .

وأولها : نسبتها إلى الشريف الرضى . وقد كان السبب فى الخطأ الخلط غير المقصود بين لقبى الرضى والمرتضى .

وثانيها : نسبة الصرفة إلى النظام وحده ، كما جاء فى تعليق عبد الحسيب طه حميدة على قول النظام ، ونصه : « ولا شك أن هذا القول ظاهر الفساد ، واضح البطلان ، لم يقل به غير صاحبه[1] » .

وثالثها : أننا كما لا نستطيع أن نعزو الصرفة إلى النظام وحده لا نستطيع أن نعزوها إلى واحدة من فرق المسلمين وحدها ، كما زعم بعض الباحثين . قد نقول ذلك عن جيل النظام ومدرسته من المعتزلة . ولكن بعض كبار المعتزلة - مثل القاضى عبد الجبار - كانوا من أكثر العلماء نقدا لهذا المذهب ، وإفاضة فى السعى إلى هدمه . إضافة إلى ذلك آمن به بعض الشيعة كالشريف المرتضى ، وهاجمه آخرون كالطوسى والطبرسى ، وآمن به بعض الأشاعرة كالإسفرائينى والجوينى ، وهاجمه آخرون كالباقلانى . وآمن به ابن حزم من الظاهرية .

ورابعها : أن هذا الرأى ليس - من الدوام - من باب الطعن على الكتاب الكريم أو باب الإلحاد فيه والزيغ ، كما ظن ، ولا يزال كثيرون يظنون ؛ بل إن هذا الرأى كان - عند بعض أصحابه - آكد فى باب الإيمان والتسليم بأن القرآن كلام الله .

وخامسها : ما وقع فيه الرافعى حين أعلن أن الصرفة عاقت حركة التفكير البلاغى ، والمتفق عليه أنها دفعته إلى بعيد ، عندما ساقت المفكرين إلى السعى لإبطالها عن طريق الكشف عن ميزات القرآن الذاتية ، أى بلاغته .

---

(١) مع القرآن ٣٥ .

وتكشف أن عددا قليلا من المؤمنين بالصرفة جعلوها وجه الإعجاز الوحيد ، وهم ابن حزم وابن سنان والجوينى . أما بقية المؤمنين بها فعدوها واحدا من وجوه متعددة للإعجاز بلغت ـ عند الماوردى ـ عشرين وجها . بل جمع أكثرهم بينها وبين النظم أو البلاغة ، وهما الوجهان اللذان اعتقد أكثر الناس ـ ولا يزالون يعتقدون ـ أنهما متضادان، وأن القول بأحدهما ينفى القول بالآخر .

وقد سلم بعض الباحثين فى كلامهم بالصرفة . ولكننا عندما نمعن النظر فى مواقفهم، نجدهم فعلوا ذلك فى أثناء الحوار بينهم وبين مخالفيهم ، أى أنهم اتخذوا هذا التسليم خطوة جدلية لإفحام خصومهم ، وإبانة أن الإيمان بها لا ينافى كونها أمرا خارقا للعادة (معجزة) دالا على نبوة محمد ، كما أعلن ابن كثير .

وسلم بها بعضهم الآخر لأنهم رأوها وجها محتملا لا يستلزم استبعاد بقية الوجوه . وأعتقد أن هذا هو موقف الخطابى ، وأن كلمة « قريب » عنده أراد بها « محتمل » .

وعمد بعض العلماء كالطوسى والقاضى عياض إلى استعراض الأقوال المختلفة ، وفيها القول بالصرفة ، دون تفضيل واضح بينها ؛ أوضعفوا الصرفة تضعيفا يسيرا كما فعل الماوردى وابن تيمية وابن جزى .

وتكشف عن موقف غريب لفخر الدين الرازى ، إذ قصر الصرفة على السور القصار، وجعل البلاغة وجه إعجاز بقية سور القرآن ..

وتكشف عن أن بعض العلماء لم يكتفوا بالقول المرسل بل ألفوا كتبا فى الدفاع عن الصرفة كما فعل الشريف المرتضى وابن سنان .

و لم تفقد الكتب وحدها بل فقدت بعض الأقوال فضاعت ، و لم يصل إلينا منها غير ذكر لها أو مقتطفات ضئيلة منها . وهذا حال المرتضى والإسفرائينى ووصلت بعض التفاصيل عن مواقف النظام والجاحظ ، مما أتاح لنا وضوحا أكثر ، وإن لم نزل عنها كل الظلام . وأكثر المواقف وضوحا موقف ابن حزم وابن سنان .

المصادر والمراجع

- الآلوسى ، محمود بن عبد الله : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى — بيروت ـ دار الفكر ـ ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
- ابن الأثير ، على بن محمد : الكامل فى التاريخ ـ لبنان ـ دارا صادر وبيروت — ١٣٨٥ / ١٩٦٥ .
- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ مصر ـ مطبعة المدنى .
- ابن جزى ، محمد بن أحمد : التسهيل لعلوم التنزيل ـ مصر ـ مطبعة حسان ـ د . ت .
- ابن حزم ، على بن أحمد : الفصل فى الملل والأهواء والنحل — لبنان — بيروت — دار المعرفة ـ د. ت .
- ابن سنان الخفاجى ، عبد الله بن محمد : سر الفصاحة ـ مصر — مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ـ ١٣٨٩ / ١٩٦٩ .
- ابن كثير ، إسماعيل بن عمر : تفسير القرآن العظيم — لبنان — بيروت — دار المعرفة — ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .
- ابن النقيب ، محمد بن سليمان البلخى : مقدمة تفسيره فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن ـ ط١ ـ مصر ـ مكتبة ومطبعة الخانجى ـ ١٤١٥ / ١٩٩٥ .
- أبو ريدة ، محمد عبد الهادى : إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية — القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .
- أبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى القرآن ـ مصر ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ .
- أبو زيد ، أحمد : المنحى الاعتزالى فى البيان وإعجاز القرآن ـ ط١ ـ المغرب — الرباط — مطبعة المعارف الجديدة ـ ١٩٨٦ .
- أبو على ، د. محمد بركات حمدى : فى إعجاز القرآن الكريم — مؤسسة الخافقين ومكتبتها ـ المكتبة الدولية ـ ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .
- أحمد ، محمد خلف الله ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار المعارف ـ د. ت
- الأسد آبادى ، عبد الجبار بن أحمد : المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ـ ط١ ـ مصر — مطبعة دار الكتب ـ ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

- الأشعرى ، على بن إسماعيل : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - استانبول - مطبعة الدولة - ١٩٢٩ .

- الإيجى ، عبد الرحمن بن أحمد : المواقف بشرح الشريف الجرجانى - مصر - مطبعة السعادة - ١٣٢٥ / ١٩٠٧ .

الباقلانى - محمد بن الطيب : إعجاز القرآن - ط٤ - مصر دار المعارف - ١٩٧٧ .

: نكت الانتصار لنقل القرآن - مصر - الإسكندرية - منشأة المعارف .

البدرى ، د. على : حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن - ط١ - دار الطباعة المحمدية - ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

ابن بدوى ، د. أحمد أحمد : من بلاغة القرآن - ط٣ - مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

ابن البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر : الفرق بين الفرق - لبنان - بيروت - دار المعرفة .

ابن البوطى ، د. محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن - ط٣ - مكتبة الفارابى - شعبان ١٣٩٢ - أيلول ١٩٧٢ .

بوكاى ، موريس : دراسة فى الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة - ط٤ - لبنان - دار المعارف - سبتمبر ١٩٧٧ .

الجاحظ : عمرو بن بحر : الحيوان - ط٣ - لبنان - بيروت - دار الكتاب العربى - ١٣٨٨ / ١٩٦٩ .

الجرجانى ، عبد القاهر بن عبد الرحمن : دلائل الإعجاز - مصر - مطبعة المدنى - ١٩٨٤ .

الجوينى ، عبد الملك بن عبد الله : العقيدة النظامية - مطبعة الأنوار - ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .

الجوينى ، د. مصطفى الصاوى : منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه - ط٢ - مصر - دار المعارف - ١٩٦٨ .

الحاجرى ، د. طه : الجاحظ : حياته وأثره - مصر - دار المعارف - ١٩٦٢ .

د. حسين ، عبد القادر : القرآن : إعجازه وبلاغته - مصر - المطبعة النموذجية - ١٩٧٥ .

الحمصى ، نعيم : فكرة إعجاز القرآن - ط٢ - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

حميدة ، عبد الحسيب طه : مع القرآن فى آدابه ومعاملاته - ط٦ - مصر - دار المعارف - ١٣٨٩ / ١٩٧٠ .

حويش ، د. عمر الملا : تطور دراسات إعجاز القرآن - بغداد - مطبعة الآمة - ١٩٧٢ .

الخطيب ، عبد الكريم : إعجاز القرآن - ط٢ - لبنان - بيروت - دار المعرفة - ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

خلف الله ، أحمد عز الدين : القرآني يتحدى ـ ط١ ـ مصر ـ مطبعة السعادة — ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

الدبل ، محمد بن سعد : النظم القرآني في سورة الرعد ـ مصر ـ عالم الكتب ـ دار النصر للطباعة الإسلامية ـ ١٩٨١ .

دراز ، د. محمد عبد الله : النبأ العظيم ـ مصر ـ مطبعة السعادة ـ ١٣٨٩ / ١٩٦٩ .

الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ـ مصر ـ

: التفسير الكبير ـ ط٢ ـ طهران ـ دار الكتب العلمية .

الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد : مقدمة جامع التفاسير — ط١ — الكويت — دار الدعوة ـ ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .

الرافعي ، مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ ط٨ ـ مصر ـ القاهرة ـ المكتبة التجارية ـ مطبعة الاستقامة ـ ١٣٨٤ / ١٩٦٥ .

زرزور ، د. عدنان : الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ـ ط١ ـ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ـ د. ت .

: القرآن ونصوصه ـ دمشق ـ مطبعة خالد بن الوليد — ١٣٩٩ ـ ١٤٠٠ / ١٩٧٩ — ١٩٨٠ .

الزرقاني ، محمد عبد العظيم : مناهل العرفان في علوم القرآن ـ لبنان ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ـ د. ت .

الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن — ط١ — مصر — دار إحياء الكتب العربية ـ ١٣٧٦ / ١٩٥٧ .

الزملكاني ، عبد الواحد بن عبد الكريم : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن — ط١ — بغداد ـ مطبعة العاني ـ ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

سلطان ، د. منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ـ منشأة المعارف بالإسكندرية — مطبعة الكاتب المصري .

سلام ، د. محمد زغلول : أثر القرآن في تطور النقد العربي ـ ط٢ ـ مصر ـ دار المعارف ـ ١٩٦١ .

السلامي ، عمر : الإعجاز الفني في القرآن ـ تونس ـ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ـ ١٩٨٠ .

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : الإتقان فى علوم القرآن ـ مصر ـ المطبعة الموسوية ـ ٢٢ شعبان ١٢٨٧ .

: معترك الأقران فى إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار الفكر العربى ـ دار الثقافة العربية للطباعة ـ ١٩٦٩ .

الشاعر ، د. أحمد عبد الحميد : القرآن الكريم فى مواجهة الماديين الملحدين ـ ط٢ ـ الكويت ـ دار القلم ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

شرف الدين ، د. صالحة عبد الحكيم : القرآن الحكيم ـ الكويت ـ مطابع كويت تايمز ـ رجب ١٤٠٤ / أبريل ١٩٨٤ .

الشريف المرتضى ، على بن الحسين : الأمالى ـ غرر الفوائد ودرر القلائد ـ ط٢ ـ لبنان ـ بيروت دار الكتاب العربى ـ ١٣٨٧ / ١٩٦٧ .

: طيف الخيال ـ ط١ ـ ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

الشهرستانى ، محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ـ لبنان ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

الصابونى ، محمد على : التبيان فى علوم القرآن ـ ط٢ ـ مكتبة الغزالى بدمشق ـ ومؤسسة مناهل العرفان ببيروت ـ ١٤٠١ / ١٩٨١ .

الصباغ ، محمد : لمحات فى علوم القرآن واتجاهات التفسير ـ بيروت ـ المكتب الإسلامى ـ ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

الطبرسى ، الفضل بن محمد : مجمع البيان فى تفسير القرآن ـ لبنان ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى .

الطوسى : محمد بن الحسن : تفسير التبيان ـ العراق ـ النجف الأشرف ـ مكتبة الأمين .

: تلخيص المحصل ـ مكتبة الكليات الأزهرية .

عبد الرحمن ، د. عائشة : الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق ـ مصر ـ دار المعارف ـ ١٩٧١ .

عتر ، د. حسن ضياء الدين : بينات المعجزة الكبرى ـ ط١ ـ سورية ـ دار النهضة ـ ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

العلوى اليمنى ، يحيى بن حمزة : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ـ مصر ـ مطبعة المقتطف ـ ١٣٢٢ ـ ١٩١٤ .

العمارى ، د. على : حول إعجاز القرآن ـ مطابع روز اليوسف الجديدة ـ ١٤١٩ .

فقيهى ، محمد حنيف : نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجانى - صيدا - بيروت — المكتبة العصرية - ١٣٧٩ / ١٩٥٩ .

القرطبى ، محمد بن عمر : الجامع لأحكام القرآن - مصر - دار الكتب .

قصاب ، د. وليد : التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة — قطر — الدوحة — دار الثقافة — ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

القطان ، مناع : مباحث فى علوم القرآن - ط٤ - مؤسسة الرسالة - ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

قمحاوى ، محمد الصادق : شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها - ط١ - مصر — دار الأنوار للطباعة — ١٣٨٩ / ١٩٧٨ .

الكرمانى ، محمود بن حمزة : أسرار التكرار فى القرآن — دراسة عبد القادر أحمد عطا — ط٣ - دار الاعتصام - دار العلوم للطباعة — ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

كفافى ، د. محمد عبد السلام وعبد اللّه الشريف : فى علوم القرآن — بيروت — دار النهضة العربية - ١٩٨١ .

لاشين ، د. عبد الفتاح : بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار — مصر — دار الفكر العربى - مطبعة دار القرآن - ١٩٧٨ .

الماوردى ، على بن محمد : أعلام النبوة - ط١ - لبنان - بيروت - ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

اليحصبى : عياض بن موسى : الشفا بتعريف حقوق المصطفى - دار الوفا للطباعة والنشر - د. ت .

إِلانبَاءُ بالغيبِ

مقدمة

وصف القرآن الله فى كثير من السور بعلام الغيوب[١] ، وعالم الغيب والشهادة[٢] ، وعالم غيب السماوات والأرض[٣] ، وعليم بذات الصدور[٤] ، وأن الغيب لله عنده مفاتيحه[٥] ، لم يطلع عليه أحدا[٦] ، إلا من اجتباه من رسله فأوحى إليه شيئا منه[٧] ، فلا يدرى ماوراءه[٨] .

يؤمن بذلك جميع المسلمين ، عدا القرامطة والديلم من الشيعة الإمامية . فالمروى عنهم أنهم يقولون : إنهم يعلمون الغيب ، ويقدرون على كل شيء[٩] .

واعتز حديث شريف بوجود ظاهرة الإنباء بالغيب فى القرآن . روى أن النبى ﷺ قال لعلى بن أبى طالب ، وهو يحذره من اختلاف الأمة بعده : « عليكم بكتاب الله ، فإن فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم[١٠] » .

وذكر محمد عزة دروزة أن بعضهم توقف فى هذا الحديث كحديث مروى عن النبى وقالوا : إنه من كلام على . ثم عقب على هذا التوقف قائلا : ولو صح هذا القول ، فمعناه أن هذا المفهوم لمدى إعجاز القرآن صادر عن أناس من الرعيل الأول ، ومن الذين كانوا أقرب الناس للنبى ، وأفهمهم لمدى القرآن[١١] .

---

(١) سور المائدة ١٠٩ ، ١١٦ . التوبة ٧٨ . سبأ ٤٨ . الجن ٢٦ .
(٢) سور الأنعام ٧٣ . التوبة ٩٤ ، ١٠٥ . الرعد ٩ . المؤمنون ٩٢ . السجدة ٦ . الزمر ٤٦ . الحشر ٢٢ . الجمعة ٨ . التغابن ١٨ .
(٣) سور البقرة ٣٣ . فاطر ٣٨ . الحجرات ١٨ .
(٤) سور آل عمران ١١٩ ، ١٥٤ . المائدة ٧ . الأنفال ٤٣ . هود ٥ . لقمان ٢٣ . فاطر ٣٨ . الزمر ٧ . الشورى ٢٤ . الحديد ٦ . التغابن ٤ . الملك ١٣ .
(٥) سور الأنعام ٥٩ . يونس ٢٠ . هود ١٢٣ . النحل ٧٧ . الكهف ٢٦ .
(٦) سورتا آل عمران ١٧٩ . الجن ٢٦ .
(٧) سور آل عمران ٤٤ . هود ٤٩ . يوسف ١٠٢ .
(٨) سور الأنعام ٥٠ . الأعراف ١٨٨ . هود ٣١ .
(٩) الشافعى الملطى ٢٠ .
(١٠) تنزيه ١٠٧ بن عطية ١ / ١٣ . الصواف ٧٣ - ٤ .
(١١) القرآن ٣٣٢ .

الفصل الأول

المؤيدون لكون الإنباء بالغيب وجه إعجاز

(١) القائلون بالشعب الثلاث

كانت أخبار الغيب فى القرآن من أول الأمور التى لفتت أنظار المسلمين ، فعدوها وجها لإعجاز القرآن . وكان أول من صرح بذلك من اشتهر عنه القول بالصرفة ، أعنى إبراهيم بن سيار النَّظّام (٢٣١ / ٨٤٦) . ذكر ابن الخياط رأيه فقال : اعلم أن القرآن حجة للنبى ـ عليه السلام ـ على نبوته ـ عند إبراهيم ـ من غير وجه :

فأحدها : ما فيه من الإخبار عن الغيوب[١] ، مثل قوله : ﴿ وعد اللّه الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض ﴾[٢] وقوله : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾[٣] وقوله : ﴿ الم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾[٤] وقوله : ﴿ أنكم أولياء للّه من دون الناس ، فتمنوا الموت ، إن كنتم صادقين ﴾ ثم قال : ﴿ ولا يتمنونه بما قدمت أيديهم ﴾[٥] فما تمناه منهم أحد ، وقوله : ﴿فقل : تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم﴾ الآية[٦].

ومثل إخباره بما فى نفوس قوم ، وبما سيقولونه .

وهذا وما أشبه فى القرآن كثير[٧] .

وعند النظر إلى هذا القول نجد النظام أطلق الغيب على ظاهرتين :

ـ أحداث المستقبل .

ـ ما يضمره الناس فى نفوسهم .

ولكن حكاية ابن حزم لرأى النظام تضيف إليهما : الأمور الماضية[٨] . وإذن فقد

---

(١) الانتصار ٢٨ . فضل ٧٠ . الأشعرى ٢٢٥ . البغدادى ١٤٣ . أبو ريدة ٣٤ . القطان ٢٦٢ . الملا ٢٤٤ ـ ٥ . لاشين ٤٢٧ ـ ٨ . سلطان ٥١ . قمحاوى ٩٧ . السلامى ٥٩ . القصاب ٤٦ ، ٤٨ ، ٣٢٣ ، أبو زيد ٧٧ ، ٢٦٤ .

(١) سورة النور ٥٥ .

(٣) سورة الفتح ١٦ .

(٤) سورة الروم ١ ـ ٣ .

(٥) سورة الجمعة ٦ ، ٧ .

(٦) سورة آل عمران ٦١ .

(٧) الانتصار ٢٨ . أبو ريدة ٣٥ . الملا ٢٤٢ ـ ٤ . سلطان ٥١ .

(٨) الفصل ١ / ٧٢ . الشهرستانى ١/٥٦ ـ ٧ . الرافعى ١٦٢ . أبو ريدة ٣٤ . الحمصى ٥٤ . الملا ٢٤٥ . لاشين ٤٢٨.

اشتمل الغيب عند النظام على ثلاث ظواهر :

- ما وقع فى الأزمان الماضية .
- ما يقع فى الأزمان المقبلة .
- ما يخفيه الناس فى سرائرهم .

وقد لاحظ د. نصر حامد أبو زيد أن خصوم المعتزلة ، والنظام خاصة يتجاهلون فى العادة رأيه فى إعجاز الغيب ، يفعلون ذلك من أجل الوثب إلى نتيجة فحواها أن النظام ومدرسته ينكرون إعجاز القرآن . والحقيقة أن الرجل لا ينكر الإعْجاز من قريب أو بعيد[1] .

يفعلون ذلك على الرغم من أنه يمكن القول - مع محمد الصادق قمحاوى - بأن كل من تحدث عن الإعجاز من المسلمين - إلانفرا يسيرا - قبِل هذا الوجه من الإعجاز[2] ، مع اختلاف فى سعة آرائهم .

فكان منهم من تابع النظام ، وتوسع توسعه ، فنادى بالإعجاز فى الشعب الثلاث من الغيب .

فعل ذلك أبو الحسن على بن محمد الماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠ / ٩٧٤ - ١٠٥٨) الذى بلغت وجوه الإعجاز عنده عشرين وجها مستقلا لكل واحدة من شعب الغيب[3].

وامتاز الماوردى عن سابقيه بمنح الشعبة الثالثة بعض الحديث ، قال فيه : الوجه التاسع من إعجازه ما فيه من الإخبار بضمائر القلوب التى لا يصل إليها إلا علام الغيوب ، كقوله : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾[4] من غير أن يظهر منهم قول أو يوجد منهم فشل ، وكقوله : ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾[5] إلى غير ذلك من نظائره[6] .

ورد على ما قد يوجه إلى كل واحدة من هذه الشعب :

فقال عن الإخبار بالأحداث الماضية : فإن قيل : الإخبار بما كان ليس بمعجز لأن علم غير الأنبياء به ممكن . فعنه جوابان :

- أحدهما : أنه ممكن فيمن علمها ، وممتنع فيمن لم يعلمها ولم يكن من أهلها فصار

---

(١) مفهوم ١٦٥ . (٢) شبهات ٩٦ . عائشة ٨١ . (٣) أعلام ٦٣ - ٥ .
(٤) سورة آل عمران ١٢٢ . (٥) سورة الأنفال ٧ . (٦) أعلام ٦٤ .

معجزا بالنسبة للثانى[١] .

ـ والثانى : أنهم اقترحوا تحدّيه مما لم يكن مبتدئا ، ولا كان له متناهيا ، من غوامض أسرار وغرائب أخبار ، جعلوها حجاجا له وعليه . ففصح بالجواب عن سرائرها ، وصدع بنعت غوامضها . فخرج عن العرف إلى ما ليس بعرف . فصار معجزا[٢] .

وقال عن الأحداث المستقبلة : فإن قيل : قد يكون ذلك حدسا بشواهد الأفعال ، وفراسة بفضل الألمعية وقوة الفطنة ، فعنه جوابان :

ـ أحدهما : أن الحدس والفراسة ، وإن أصاب بهما صاحبهما تارة ، يخطئ بهما أخرى . ومحمد ﷺ أصاب فى الجميع . فخرج عن الحدس والفراسة إلى علم من لا تخفى عليه الغيوب[٣] .

ـ والثانى : أن الحدس والفراسة توهُّم غير مقطوع بهما قبل الوجود . وهذه أخبار مقطوع بهما قبل الوجود . فافترقوا[٤] .

وذكر أنه قد يعترض على الإخبار بما فى الضمائر بأن العرف جرى بأن يختلف الجمع الكثير ، فإن وجد فى بعضهم عزم على شيء لم يوجد فى جميعهم ، فتقابل القولان فيهم وبطل الإعجاز . ثم قال : عنه جوابان :

ـ أحدهما : أنهم وُوجهوا بهذه الأخبار على العموم ، فلم ينكروها . فزال هذا التفصيل، فصار معجزا[٥] .

ـ والثانى : أنه جعله ذنبا لهم ، فلم يتنصلوا منه . فدل على وجوده من جميعهم[٦] .

وأورد بدر الدين محمد بن بهادر الزركشى (٧٤٥ ـ ٧٩٤ / ١٣٤٤ ـ ١٣٩٢) اثنى عشر وجها للإعجاز ، وما يوجه لكل واحد منها من اعتراضات . وجعل الوجه الثالث منها ما فى القرآن من الإخبار عن الغيوب المستقبلة ، ولم يكن ذلك من شأن العرب[٧] ، والوجه الرابع إخباره عن قصص الأولين حكاية من حضرها وشاهدها[٨] ، والخامس

---

(١) أعلام ٦٣ .
(٢) نفس الموضع .
(٣) نفسه ٦٤ .
(٤) نفس الموضع .
(٥) نفس الموضع .
(٦) نفسه ٦٥ .
(٧) البرهان ٢ / ٩٥ .
(٨) البرهان ٢ / ٩٦ .

إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل[1] . واستشهد بالآيتين اللتين استشهد بهما الماوردى . وأضاف إليهما قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله ﴾[2] وإخباره عن اليهود أنهم لا يتمنون الموت أبدا[3] .

وأورد اعتراضا على الوجهين الأولين ، سنعرف بعدُ أنه أخذه من الخطابى ، قال فيه : وردّ هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التى لا خبر فيها بذلك لا إعجاز فيها ؛ وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها . ثم ما لبث أن قال مبينا رأيه : نعم ، هما من أنواع الإعجاز ، إلا أنه منحصر فيهما[4] .

واقتطف جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩ ــ ٩١١ / ١٤٤٥ ــ ١٥٠٥) أقواله ، إلا أنه أهمل الاعتراض والرد عليه[5] .

وعرَّف محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥) الغيب بأنه ما غاب علمه عن الناس . ثم قسمه قسمين :

١ - غيب حقيقى : لا يعلمه إلا الله ، ومن أظهره الله على بعض هذا الغيب من رسله فليس لهم فى ذلك كسب .

٢ ــ غيب إضافى : يعلمه بعض الخلق دون بعض ، لأسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطرى والعمل الكسبى[6] .

وتحسر رشيد رضا على الغافلين الذين حصروا الإعجاز فى فصاحة المفردات والجمل ، وبلاغة البيان ، على ما فى دلالة الفصاحة والبلاغة على النبوة من الخفاء على الأذهان[7]. وجعل ما فى القرآن من علم الغيب : بالماضى ، والمستقبل ، وما فى قلوب المنافقين وما سيقولونه فى بعض المسائل ، الوجه الثالث من وجوه سبعة للإعجاز[8] .

ثم جعل أنباء الغيب الماضية ناحيتين :

١ - قصص الرسل مع أقوامهم .

---

(١) نفس الموضع . (٢) سورة المجادلة ٨ . (٣) البرهان ٢ / ٩٦ .
(٤) نفس الموضع . (٥) الإتقان ٢ / ١٣٧ . الحمصى ١٦٢ - ٣ .
(٦) المنار ١١ / ٢٢٤ . (٧) تفسير المنار ١٢ / ٤٥ . (٨) نفسه ١ / ٢٠٤ .

٢ ـ أخبار التكوين : كخلق السماوات والأرض والإنسان والجان ،

وأخبار السنن العامة فى الخلق الواردة فى سياق تعداد النعم كما تراه فى سورة النحل ،

أو سياق آيات الله وحججه على عباده كما تراه فى سورة الروم . كما جعل أنباء الغيب المستقبلة قسمين :

١ ـ وعد الله بنصر رسوله والمؤمنين ، وخذلان الكافرين ،

٢ ـ أخبار القيامة والحساب(١) .

وأعلن أن هذه الأخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبونا ، وكون القرآن من الله ، إذ لا يعلم الغيب غيره . ولا تمكن معارضتها بما يصح ـ بالمصادفة أو القرائن ـ أحيانا من أقوال الكهان والعرّافين والمنجمين . فإن كذب هؤلاء أكثر من صدقهم ، إن صحت تسمية ما يتفق لهم صدقا منهم . لكن الناس لا يحصون عليهم أقوالهم . ولا يبحثون عن حيلهم وتلبيساتهم فيها . وإنما يذكرون بعض ذلك ، إذا اقتضته الحال ، كتشنيع أبى تمام على المنجمين ، فى زعمهم أن مدينة « عمورية » لا تفتح إلا عند نضج التين والعنب ، فى قصيدته المشهورة(٢) .

واتفق محمد عبد العظيم الزرقانى (١٣٦٧ / ١٩٤٨) مع هؤلاء فى قبول الإنباء بالغيب وجها من وجوه الإعجاز ، وتقسيمه إلى ثلاث شعب ، ولكنه فيما وراء ذلك كانت له نظرته الخاصة .

فقد جعله الوجه السابع من أربعة عشر وجها(٣) . ثم قسمه إلى :

ـ غيب الماضى(٤) .

ـ وغيب الحاضر(٥) .

ـ وغيب المستقبل(٦) .

وأراد بغيب الحاضر ما يتصل بالله والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك ، مما لم يكن للرسول ﷺ سبيل إلى رؤيته ولا العلم به ، كما أراد به أيضا ما فضح الله به المنافقين فى عصر الرسول ﷺ مما كان قائما بهم ، وخفى أمره عليه . وإذن فقد اتسع

---

(١) نفسه ١٢ / ٣٤ ـ ٥ . الحمصى ٣٢٢ .

(٢) نفسه ١ / ٢٠٤ ـ ٥ .

(٣) مناهل ٢ / ٢٦٣ . فقيهى ١٩٠ .

(٤) نفسه ٢٦٣ ـ ٤ . النبأ ٤٥ .

(٥) نفسه ٢٦٤ ـ ٥ . النبأ ٤٥ .

(٦) نفسه ٢٦٥ ـ ٧٦ . النبأ ٤٥ .

الزرقانى بهذه الشعبة فضمنها ما كان غيره يسمونه الإنباء بما فى الضمائر ، كما ضمنها أشياء أخرى لم يدرجوها فيها[١] .

وامتاز بالإفاضة الواسعة فى إيراد أمثلة الأنواع الثلاثة من الغيب من الآيات ومناقشتها، والرد على من أثاروا الشكوك حول أمية محمد ﷺ[٢] .

واتبعه د. موسى شاهين لاشين فى التقسيم والدراسة مع الإيجاز الشديد . ولم يضف إليه إلا قوله : دلالة غيب المستقبل على الإعجاز أقوى من غيب الماضى والحاضر ، لأنه لا يحتمل مراء ولا جدلا ، حين يمارى فى غيب الماضى أنه تعلمه من غيره ، وفى غيب الحاضر أنه افتراء أو أعانه على معرفته آخرون ، كما روى القرآن[٣] .

وجعل د. حسين ضياء الدين عتر الإخبار عن الغيب ثانى ثمانية وجوه للإعجاز ، وتحدث فيه عن الشعب الثلاث . وقد قسم الغيب ثلاثة أقسام :

- غيب الماضى[٤] .
- غيب الحاضر[٥] .
- غيب المستقبل[٦] .

ووضع فى غيب الماضى سير المرسلين ، ومناهج المؤمنين ، ومواقف أعداء الرسل الكافرين ؛ وفى غيب الحاضر كشف حقيقة المنافقين ، وإزاحة الستار عن خفايا نفوسهم.

وقسم الإنباء بالمستقبل ثلاثة أقسام :

أولا : مستقبل الإسلام ورسوله وكتابه[٧] .

ثانيا : مستقبل المسلمين[٨] .

ثالثا : مستقبل المشركين[٩] .

وتكشف أقوال د. عتر أنه اعتمد على القاضى عبد الجبار والآلوسى والزرقانى ودراز.

---

(١) نفسه ٢٦٤ . وأدخل فيه أيضا المسائل العلمية . النبأ ٤٥ .

(٢) نفسه ٢٦٣ ـ ٧٨ ، ٣١٧ ـ ٩ . النبأ ٤٥ ـ ٦٦ .

(٣) اللآلئ ٢٢٣ ـ ٥ .

(٤) بينات ٣٢١ .

(٥) نفسه ٣٢١ ، ٣٢٥ .

(٦) بينات ٣٢١ ، ٣٢٨ .

(٧) بينات ٣٢٩ .

(٨) بينات ٣٣٨ .

(٩) بينات ٣٤٥ ـ ٥٨ .

وجاء بفكرة أعتقد أنه استنتجها من قول الأصبهانى : إن الإخبار بالغيب معجز مهما كان النظم الذى صيغ فيه . قال د. عتر : لا بتطلب هذا الوجه من الإعجاز - كالإعجاز البيانى - ذوقا بلاغيا مرهفا ، ومعرفة لغوية عريقة ، مما لا يتوفر عند العامة عادة . فيمكن لكل إنسان - عربيا كان أو أعجميا - أن يرى الإعجاز ماثلا فيه ، فيتخذه دليل هدايته[1]. وأفاض فى ذكر الأمثلة من كل نوع وتحليلها .

وعد أحمد عز الدين عبد الله خلف الله الشعب الثلاث من الإعجاز أيضا . ولكننا نتبين من كتابه أنه يتبع « معترك » السيوطى ، ويقسم الغيب إلى شعبتين اثنتين :

- وقائع المستقبل[2] .
- أخبار الأمم الماضية[3] .

أما بيان حقيقة ما فى الضمائر ، وبيان الوسائل والغايات ، وتحليل دوافع السلوك والأفعال ، فقد جمعها معا تحت وجه الإعجاز المتعلق بالنفوس البشرية وعزلها عن الغيب[4].

و لم يعط خلف اللّه أخبار الأمم غير لمحة خاطفة ، وأخلص سائر حديثه لوقائع المستقبل[5] .

وقد استلهم محمد رشيد رضا فقسم هذه الوقائع إلى :

- ما يتعلق بالقرآن الكريم[6] .
- ما يتعلق بمستقبل الإسلام[7] .
- ما يتعلق برسول اللّه[8] .
- ما يتعلق بمستقبل حزب اللّه[9] .
- ما يتعلق بمستقبل حزب الشيطان[10] .

وعنى عناية خاصة فى الرد على اعتراض الخطابى ومن لف لفه . قال :

---

(١) بينات ٣٢١ . (٢) القرآن ١٩٤ . (٣) نفسه ٢٢٠ .
(٤) نفسه ٢٧٤ - ٥ . (٥) نفسه ٢٢٠ . (٦) نفسه ١٩٧ - ٢٠٣ .
(٧) نفسه ٢٠٤ - ٥ . (٨) نفسه ٢٠٥ - ١٠ . (٩) نفسه ٢١٠ - ٥ .
(١٠) نفسه ٢١٥ - ٢٠ .

١ ـ وجوه الإعجاز منها ما يتعلق بالقرآن كله جملة واحدة ، ومنها ما هو متعلق بسورة منه ، ومنها ما هو متعلق بالآية من آياته . وليس معنى خلو الآية من الإخبار بالغيب : خلوها من جميع وجوه الإعجاز .

٢ ـ وجوه الإعجاز لا تعد ولا تحصى . وكل آية وسورة فيها من وجوه الإعجاز ما يتناسب مع ما نزلت فيه . فلا تتشابه هذه الوجوه فى كل السور والآيات .

كما أنها قد تظهر للبعض وتخفى على الآخرين .

وقد لا يُنوَّه عنها فى عصر بينما تنتشر فى عصر آخر . وهى تتجدد بتجدد البحث عنها . وهذا مما يدل على أنها لا تقع تحت الحصر .

٣ ـ من قال : إن التحدى فى الإخبار بالمغيبات ، إن وقع بعد عصر النبوة فقد فات زمنه ؛ قلنا له : إن إعجاز القرآن ليس موقوتا بزمن دون آخر ، بل هو قائم فى كل عصر. وما وقع من الإخبار بالمغيبات فى عصر النبوة فهو وجه من وجوه الإعجاز لأهل ذلك العصر ، ولمن بلغه ذاك . وكذلك الأمر فى الأخبار التى تضمنتها الآيات القرآنية ، ووقعت بعد عصر النبوة .

٤ ـ لا يجوز الطعن فى هذه الأخبار بأنها من أمور التنجيم أو الكهانة أو السحر . فهم جميعا يعلمون أنه ﷺ لم يجلس إلى أحد ليتعلم منه هذه العلوم التى تحرم الشريعة إتيانها . ولو كانت المسألة مسألة سحر ـ كما زعموا ـ فلماذا لا يأتون بسحر مثله ؟ ولا نعلم عنهم سوى الفشل المطلق فى الإتيان بمثل هذا القرآن[1] .

وختم خلف الله حديثه بجملة تكشف المعيار الذى راعاه القرآن فى الحديث بالغيب ، قال : ولا يعزب عن البال أن القرآن إنما يذكر من أنباء الغيب ما هو متصل بالرسالة الكبرى ، ومرتبط بشؤون الدعوة إلى الله ، ومكمل للإنسان[2] .

---

(١) القرآن ١٩٤ ـ ٥ .　　(١) القرآن ٢٢٠ .　　(الصرفة)

(٢) القائلون بأحداث المستقبل وحدها

وكان منهم من قصر حديثه على الإنباء بأحداث المستقبل ، وعده واحدا من وجوه متعددة للإعجاز .

فعل ذلك على بن عيسى الرمانى (٢٩٦ - ٣٨٤ / ٩٠٨ - ٩٩٤) الذى عدّ الغيب واحدا من سبع وجوه لإعجاز القرآن ، وعرّفه بأنه الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة[١].

واحتج بأنه لما كان لا يجوز أن تقع هذه الوقائع متفقة مع الإخبار عنها ، دل ذلك على أن هذه الأخبار من عند علام الغيوب . واستشهد بقوله : ﴿ وإذ يعدكم اللّه إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد اللّه أن يُحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين[٢] ﴾ فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين : العير التى كان فيها أبو سفيان ، أو الجيش الذى خرج من قريش لحماية العير . فأظفرهم اللّه بقريش يوم بدر على ما تقدم من الوعد . كما استشهد بآية الروم ، وعدم تمنى اليهود للموت ، وعجز المشركين عن معارضة القرآن ، وبقوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون[٣] ﴾ وقوله : ﴿سيُهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[٤] وقوله : ﴿ وعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها . فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ﴾ وقوله : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ، قد أحاط اللّه بها ﴾ وقوله : ﴿ لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق : لتدخلن المسجد الحرام — إن شاء اللّه - آمنين ، محلقين رؤوسكم ، ومقصرّين ، لا تخافون ﴾[٥] .

ويتجلى فى حديث القاضى أبى الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادى (٤١٥ / ١٠٢٥) المفصل أنه لا يستخدم إلا الغيب والغيوب ، ويطلقهما على أحداث المستقبل ، غير مرتين تحدث فيهما عن « أفعال الناس إذا خلوا فى منازلهم ، وعن ضمائرهم ، وعما

---

(١) النكت ٦٩ ، ١٠١ . (٢) سورة الأنفال ٧ . (٣) سورة الصف ٩ .

(٤) سورة القمر ٤٥ . (٥) سورة الفتح ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ . النكت ٦٩ ، ١٠١ — ١٠٢ . الإتقان ٢ / ١٤١ . صقر : مقدمة إعجاز الباقلانى ١١ . فقيهى ١٤٩ — ٥١ . الملا ٢٧١ . لاشين ٤٤٠ . سلطان ٧١ . خلف اللّه ١٩٦ . قمحاوى ٩٨ . القصاب ١٢٩ ، ٣٢٣ .

يختاره الجمع أو الآحاد »[١].

وقد ناقش القاضى الغيب نقاشا مفصلا ، تناول جوانب لم يتناولها غيره . فقد ذكر أن بعض الناس جوزوا أن يكون الكفار ظنوا أن القرآن تحداهم بما تضمنه من الأخبار عن الغيوب ، بدليل أن بعضهم ـ مثل النضر بن الحارث ـ سعوا للحصول على أخبار الفرس ليباروه بها[٢] .

ولكنه استبعد ذلك ، وأعلن أن التحدى كان فى الفصاحة . واستدل بثلاثة أدلة ، هى:

ـ تحدى القرآن بمثل كل سورة ، من غير تخصيص . ولا تتضمن كل السور إخبارا عن الغيوب[٣] .

ـ تحدى القرآن بجملته لا ببعضه . فكيف يصرف التحدى إلى ما يتضمن من الغيوب دون ما يتضمن من الحلال والحرام[٤] .

ـ تحدى الرسول ﷺ العرب على الطرائق المعقولة عندهم ، وفى عادتهم . وإنما اعتادوا التحدى فى [فصاحة] الكلام[٥] .

ثم صرح القاضى أن شيوخه رأوا صحة كون القرآن معجزة ودلالة على النبوة ، من حيث يتضمن الإخبار عن الغيوب[٦] .

وجعل الأصل فى ذلك أن الأخبار التى تتحدث عن العباد تنقسم قسمين :

ـ أحدهما أخبار تصدر عن علم .

ـ والآخر أخبار تصدر عن ظن وتبخيت واتفاق . وأراد بالتبخيت الاعتقاد الواقع على سبيل الابتداء من غير نظر فى شىء .

وأعلن أن القسم الثانى لا يجوز أن يتفق فيه الصدق ، على التفصيل ، وعلى طريقة واحدة ، وإنما يقع الصدق فى القليل اليسير[٧] . فالقدر الذى يعرفه العباد من الأمور المستقبلة لا يبلغ الحد الموجود فى القرآن ، لأنهم إنما يعلمون ما جرت العادة بمثله ،

---

(١) المغنى ١٦ / ٣٣١ ، ٣٣٥ . (٢) المغنى ١٦ / ٢٨١ . (٣) المغنى ١٦ / ٢٢٠ .

(٤) نفس الموضع . (٥) نفس الموضع ، ٢٨١ . عائشة ٨١ ـ ٢ . لاشين ٤٨١ .

(٦) المغنى ١٦ / ٣٣٠ . (٧) المغنى ١٦ / ٣٣١ . الماوردى ٦٤ . خلف الله ١٩٥ ـ ٦ .

كحدوث البرد والحر فى أوقاتهما ، وسائر ما يعرفه أهل الفلاحة ، وما يتعاطاه الأطباء والمنجمون . وإنما يعرفون ذلك على جهة الجملة من غير تفصيل ، وعلى جهة التقريب من غير تحقيق ، فى كثير منه[١] .

واستشهد بعدد من الآيات[٢] . ثم أبان كيفية دلالة هذه الأخبار على النبوة . ونفى أن تكون قد صحت عن طريق التبخيت أو الكهانة أو التنجيم أو السحر . ثم قال :

- إن طعن طاعن بأنه ﷺ جاء بهذه الأخبار ، و لم يظهر عنه تعاطى تلك العلوم ومجالسة أهلها ؛ فهذا كالمعجز أيضا ، لما بيناه من إصابته الدائمة .

- وإن كان ﷺ عرف هذه العلوم ، وإن لم يختلط بأهلها ؛ فهو كالمعجز .

- وإن كان اختُص بالنظر فى الكتب ، وعرف ذلك منها ، و لم تظهر حاله ولا حال الكتب ؛ فذلك كالمعجز .

- وإن كان اللّه قد خصه بهذه العلوم ، فأمكنه الإخبار عن الأمور الكائنة والمستقبلة ؛ فهو معجز .

- وإن كان قد حصل ذلك منه اتفاقا ؛ فهو أيضا معجز ، لأن العادة لم تجر بمثله[٣] .

وتبين كل هذه الوجوه صحة عظم شأن القرآن ، وأنه لا وجه يُجعَل قَدْحا فيه إلا ينعكس على المخالفين . فالإخبار بالغيب إذن أظهر حالا فى الإعجاز من سائر المعجزات. ولذلك صار شأنه أعظم من شأن جميع المعجزات[٤] .

وقد أراد د. وليد قصاب أن يوضح موقف القاضى عبد الجبار فقال : تبنى القاضى عبد الجبار رأى الخطابى . ولكنه يبدو أكثر تحفظا منه فى قوله . فلا يرضيه كثيرا أن يكون الحديث عن المغيبات تفسيرا للإعجاز ، لأنه خروج من التعميم إلى التخصيص ، ومن دائرة واسعة إلى دائرة ضيقة مغلقة . فقد عمم القرآن فى آية التحدى و لم يخصص . ولذلك كان هذا القول فى إعجاز القرآن بعيدا[٥] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٣٣٠ - ١ . خلف اللّه ١٩٥ .

(٢) نفسه ٣٣٢ - ٣ .

(٣) نفسه ٣٣٤ - ٥ ، ٣٤٣ .

(٤) نفسه ٣٤٣ .

(٥) التراث ٣٢٣ - ٤ .

والحق إن القاضى بدأ حديثه قريبا من الخطابى فى التحفظ والتفرقة بين وجوه التحدى ووجوه الإعجاز . ولكنه أنهاه بعيدا عنه ، متخلصا من كل تحفظ ، معلنا أن هذا الوجه من الإعجاز أعظم شأنا من جميع الوجوه الأخرى .

وسار على الدرب أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى (٣٨٥ — ٤٦٠ / ٩٩٥ — ١٠٦٧) الذى قال فى تفسير آية التحدى فى سورة البقرة : فى قوله : ﴿ لن تفعلوا ﴾ دلالة على صحة نبوته ، لأنه يتضمن الإخبار عن حالهم فى المستقبل بأنهم لا يفعلون . ولا يجوز لعاقل أن يقدم على جماعة من العقلاء يريد تعجيزهم ، فيقول : أنتم لا تفعلون ، إلا وهو واثق بذلك ، ويعلم أن ذلك متعذر عندهم[1] .

وأعلن جار اللّه محمود بن عمر الزمخشرى (٤٦٧ — ٥٣٨ / ١٠٧٥ — ١١٤٤) أن القرآن معجز من جهتين :

- جهة نظمه ،
- وجهة ما فيه من الإخبار بالغيوب .

ثم فسر الغيوب بما يدل على أنه أراد أحداث المستقبل[2] .

وتبع الزمخشرى الطوسى فى تفسيره لآية التحدى ، وزاد قوله وضوحا . قال : فإن قلت : من أين لك أنها إخبار بالغيب على ما هو حتى تكون معجزة ؟

قلت : لأنهم لو عارضوه بشىء ، لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله ـ فيما عليه مبنى العادة ـ محال ، لا سيما والطاعنون أكثف عددا من الذّا بين [المدافعين] عنه . فحين لم يُنقَل ، عُلم أنها إخبار بالغيب على ما هو ؛ فكان معجزة[3] .

وقد ردد المفسرون بعد الطوسى والزمخشى فحوى أقوالهما فى تفسيرهم لهذه الآية ، بل أتى بعضهم بالقول نصا ، تاما أو مبتورا[4] .

---

(١) التبيان ١ / ١٠٧ . الرازى ١/١٢٠ . التوحيد ١٢٧ . المنار ١/ ١٩٥ . الزرقانى ٢ / ٢٧٦ . عتر ٣٢٤ . خلف ١٩٩ .
(٢) الكشاف ٢ / ٢٣٨ ، ٢٦٢ .
(٣) الكشاف ١ / ٢٤٨ . البيضاوى ١ / ٣٦ . النسفى ١ / ٣٢ . أبو حيان ١ / ١٠٦ . أبو السعود ١ / ٨٢ .
(٤) ابن عطية ١ / ٢٠٤ . الطبرسى ١ / ٦٣ . ابن الجوزى ١ / ٥١ . القرطبى ١ / ٢٣٤ . الخازن ١ / ٣٤ . ابن جزى ١ / ٧٢ . ابن كثير ١ / ٦٠ . القمى ١ / ٢٠٧ . الشوكانى ١ / ٥٣ .

ويستحق الذكر الخاص من بينهم فخر الدين محمد بن عمر الـرازى (٥٤٤ ـ ٦٠٦ / ١١٥٠ ـ ١٢١٠) لتفصيله وجداله . قال : فـاعلم أن هـذه الآيـة دالـة علـى المعجـز مـن وجوه أربعة :

ـ أحدها : أنا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا فى غاية العداوة للرسول ﷺ ، وفـى غايـة الحرص على إبطال أمره . فإذا انضاف إليهـا مثـل هـذا التقريـع ، فلـو كـان فـى وسـعهم الإتيان بمثل القرآن ، أو بمثل سورة منه لأتوا به . فحيث أنهم ما أتوا به ، ظهر المعجز .

ـ ثانيها : أنه ﷺ كان معلوم الحال فى وفور العقل والفضل والمعرفـة بـالعواقب . فلـو تطرقت التهمة إلى ما ادعاه من النبوة لمـا اسـتجاز أن يتحداهـم ، ويبلـغ فـى التحـدى إلى نهايته . بل كان يكون خائفا مما يتوقعه من فضيحة يعود وبالها على جميع أموره .

ـ ثالثها : أنه ﷺ لو لم يكن قاطعا بصحة نبوته لما قطع فى الخبر بأنهم لا يأتون بمثله . فالمبطل المزور لا يقطع فى الكلام ولا يجزم به .

ـ رابعها : أنه وُجد مَخْبَر هذا الخبر على ذلك الوجه ، لأنه مـن أيامـه ﷺ إلى عصرنـا هذا ، لم يخل وقت من الأوقات ممن يعادى الإسلام ، وتشتد دواعيه فى الوقيعـة بـه ، ثـم إنه مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة قط[1] .

وأورد عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى (٧٥٦ / ١٣٥٥) الإخبار عن الغيب ضمن عدد من وجوه إعجاز القرآن[2] .

ثم أورد عددا من اعتراضات المعترضين عليه ، فكانت :

ـ الأول : أنه جائز كرامة إلا أن يتكرر إلى أن يصير معجزا ، ومراتبـه غـير مضبوطـة . فكيف يعلم بلوغ القرآن مرتبة الإعجاز ؟ [3] .

ـ الثانى : أنه يقع من المنجمين والكهنة ، وليس بمعجز اتفاقا[4] .

ثم رد على هذه الاعتراضات بأن حد المعجز تقضى به العادة ، وقد بلـغ القـرآن ذلـك المبلغ[5] . وأراد بذلك أن الإنباء بالغيب كثر فى القرآن كثرة خارجة عن المعتاد المتعارف عليه ، فصار معجزا .

---

(١) مفاتيح ١ / ١٢٠ . النيسابورى ١ / ٢٠٧ . (٢) المواقف ٣٥٠ .
(٣) المواقف ٣٥١ . (٤) المواقف ٣٥١ . (٥) المواقف ٣٥٤ .

وأضاف على بن محمد المعروف بالشريف الجرجانى (٧٤٠ — ٨١٦ / ١٣٤٠ — ١٤١٣) فى شرحه على مواقف الإيجى الردين التاليين :

- لم يبلغ إخبار المنجمين والكهنة ذلك المبلغ ، وأخبارهم عن الكسوف والخسوف من باب الحساب الذى قلما يقع الغلط فيه ، لا من قبيل الإخبار بالغيب[١] .

- يكفينا فى إثبات النبوة اشتمال القرآن على ما هو خارق للعادة . ولا يضرنا عدم اشتمال بعضه عليه[٢] . وقد استقى هذا الرد من قول للإيجى يعلن فيه : يكفينا كون القرآن بجملته معجزا[٣] .

وسار السيد شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسى (١٢١٧ - ١٢٧٠ / ١٨٠٢ — ١٨٥٤) فذكر أن من القوم من يقول : إن إعجازه فى اشتماله على الإخبار بالغيب . ثم ذكر أن من القوم من يرد هذا القول معتلا بما يلى :

أولا : الإصابة فى المرة والمرتين ليست من الخوارق . والحد الذى يصير به الإخبار خارقا غير مضبوط . فإذن لا يمتنع أن يقال : ما اشتمل عليه القرآن لم يصل إليه[٤] .

ثانيا : يلزم منه أن يكون إخبار المنجمين والكهنة عن الأمور المغيبة مع كثرة إصابتها معجزة .

ثالثا : يلزم أن تكون التوراة كذلك لاشتمالها كاشتماله .

رابعا : يلزم أن يكون الخالى من الإخبار بالغيب من القرآن غير معجز[٥] .

ثم رد على أصحاب هذه الأقوال بأن اعتراضهم مكابرة . فإن الإخبار عن الغائبات مع التكرر والإصابة غير معتاد ، ولا معنى لكونه معجزا غير هذا وما ذكروه من الوجوه باطل للأسباب التالية التى اعتمد فيها على الإيجى :

---

(١) ٢٥٣ . الآلوسى ١ / ٢٩ - ٣٠ .
(٢) ٢٥٣ . الآلوسى ١ / ٣٠ .
(٣) المواقف ٣٥٣ .
(٤) روح ١ / ٢٨ .
(٥) نفس الموضع .

أما الأول فلأنه لا يلزم من عدم كـون الإصابـة فـى المـرة والمرتـين مـن الخـوارق أن لا تكون الإصابة فى المرات الكثيرة منها ، والضابط العُرْف ، ولا يخفَى أن ما ورد فى أخبار الغيب فى القرآن مما يعد فى نظر أهل العرف كثيرا لا تُعتاد الإصابة فيه بجملته .

وأما الثانى فلأن أخبار المنجمين : ما كان كاذبا منها لااحتجاج به ، وما كان صادقا، وتكررت الإصابة فيه كالكسوف والخسـوف غـير وارد ، لأنـه مـن الحسـاب المعتـاد لمـن يتعاطى صناعة التنجيم . وأخبـار القـرآن بـالغيوب ليسـت كذلـك . وأمـا أخبـار الكهنـة فالقول فيها كما فى السحر .

وأما الثالث فلأن ما فى التوراة من الإخبار بـالغيب : إن كـان كثـيرا خارقـا للعـادة ، ووقع التحدى به ، فهو أيضا معجز ، وآية صدق لمن أتى به . ولا يضرنا التزام ذلك .

وأما الرابع فلأنه لا يرد على من يقول : وجه الإعجاز مجموع مـا تقـدم أصـلا . ومـن يقول : وجهه مجرد الإخبار بالغيب يقول بأن الخالى من ذلك غير معجز . وإنمـا الإعجـاز فى القرآن بجملته ، ويكفى ذلك فى غرضه[١] .

---

(١) روح ١ / ٢٩ - ٣٠ .

(٣) القائلون بأحداث المستقبل مع تحفظ

وكان من الباحثين من قصر حديثه على الإنباء بأحداث المستقبل مثل الفريق السابق ، غير أنهم تحفظوا فى قولهم حتى ظن بعض الناس أنهم من الرافضين لهذا الوجه .

فعل ذلك أبو سليمان حمد بن محمد الخطابى (٣١٩ ـ ٣٨٨ / ٩٣١ ـ ٩٨٨) إذ قال: وزعمت طائفة أن إعجازه فيما تضمنه من الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، واستشهد بآية الروم ، وبقوله سبحانه : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ﴾[١] ونحوهما من الأخبار التى صدقت أقوالها مواقع أكوانها .

ثم قال : ولا يُشك فى أن هذا ، وما أشبه من أخباره ، نوع من أنواع إعجازه . ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن . وقد جعل سبحانه فى صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها . فقال : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون اللّه ، إن كنتم صادقين ﴾[٢] من غير تعيين . فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه[٣] .

وقد ذهب د. عبد الفتاح لاشين إلى أن الخطابى ـ فى هذا القول ـ أنكر إعجاز القرآن بما فيه من أخبار غيبية ، مثله مثل إنكاره للقول بالصرفة[٤] .

ولكن محمد بركات حمدى أبو على اختلف معه . فرأى أن الخطابى عدّ هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآنى ، ولكنه لم يرتضه وجها عاما للإعجاز لأمرين ، مع أنه لا ينكره، هما :

١ ـ لا يسحب أمر الإخبار على جميع سور القرآن ، إذ بعض السور لا خبر فيها عن مستقبل ، ولا ينبئ عن أمر .

٢ ـ يوجد فى بعض كتب الإخباريين والكهان والقصاص من أمر الأخبار السابقة الشيء الكثير . وهذا يعنى توافق القرآن مع كتب غير المسلمين فى ناحية . وهذا يقلل من قيمة الإعجاز القرآنى[٥] .

---

(١) سورة الفتح ١٦ . (٢) سورة البقرة ٢٣ .

(٣) بيان ٢١ . المغنى ١٦ / ٢٢٠ . العلوى ٣ / ٣٩٨ . صقر ١٣ . فقيهى ١٨٤ ـ ٥ . الخطيب ١٨٦ ـ ٧. عائشة ٨١ . الملا ٢٧٤ ـ ٥. عبد القادر ٧١ . خلف اللّه ١٩٦ . البدرى ١٣٨ ، وحذف الجزء الأخير من كلام الخطابى .

(٤) بلاغة ٤٤٥ . (٥) فى إعجاز ١٠٢ - ٣ .

ولم أجد الحجة الثانية التى نسبها أبو على للخطابى فى كتابه ، وأعتقد أن أقوال الخطابى اختلطت عنده مع أقوال غيره .

ووصف د. وليد قصاب موقف الخطابى فقال : إنه يرى فيه وجها من وجوه الإعجاز، ولكنه لا يتحمس له كثيرا ، ولا يطيل الوقوف عنده ، ويعلن تحفظه عليه[١] .

ووقف أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (نحو ٥٠٢ / ١١٠٩) موقفا قريبا من موقف الخطابى . فقد أعلن أن إعجاز القرآن :

- إما أن يتعلق بصرف الناس عن معارضته ،
- أو يتعلق بفصاحته .

ثم أعلن أن إعجاز الفصاحة :

- إما أن يتعلق بالألفاظ .
- أو يتعلق بالمعانى .

ورفض أن يكون الإعجاز فى الألفاظ ، لأن ألفاظ القرآن هى ألفاظ العرب نفسها .
كما رفض أن يكون فى المعانى ، لأن كثيرا منها موجود فى الكتب المتقدمة .

ولكنه أعلن فى الوقت نفسه أن « ما هو معجز فيه جهة المعنى ، كالإخبار بالغيب ، فإعجاز ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خبرا بالغيب »[٢] .

وسبب هذا الموقف أنه كان يرى الإعجاز فى النظم ، وأن « بالنظم المخصوص صار القرآن قرآنا ، كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعرا ، والخطبة خطبة » . وأدى به ذلك إلى نتيجة دقيقة فحواها أن الإعجاز بالغيب معجز ، سواء كان بهذا النظم أو غيره ، موردا بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى ، بإشارة أو بعبارة[٣] .

وذهب شهاب الدين أحمد بن الخفاجى (٩٧٧ - ١٠٦٩ / ١٥٦٩ - ١٦٥٩) إلى أن الإخبار بالغيب ليس وجه التحدى ، ولكن ذلك لا يتناقض عنده مع إعجازه[٤] .

وعدّ محمد الصباغ إخبار القرآن عن الأمم السابقة ، والغيوب المستقبلة ، والسرائر

---

(١) التراث ٣٢٣ . (٢) مقدمة ١٠٤ - ٦ . الإتقان ٢ / ١٣٨ . صالحة ٧٠ .
(٣) مقدمة ١٠٦ . الإتقان ٢ / ١٣٨ . (٤) ٢ / ٣ ، ٣٥ ، ٥ / ٢١ ، ٧٦ - ٨١ .

ودخائل النفوس ، دليل صدق نبوة الرسول ﷺ وأن القرآن من عند اللّه . ولكنه ليس موضع الإعجاز الذى رافقه التحدى[(١)] .

واعتمد عبد القادر حسين على حجج الخطابى والعلوى اليمنى فى رفض كون الإنباء بالغيب وجه إعجاز . كما احتج أيضا بأن التنبؤ بالمستقبل وقصص الأنبياء ، وردت فى غير القرآن من الكتب المقدسة ، دون أن نسمع أن أهل الكتاب ادعوا الإعجاز للتوراة أو الإنجيل ، ولا ادعى لهم المسلمون ذلك ولم يقع بهذه الكتب التحدى كما وقع بالقرآن . وعلى الرغم من ذلك ، أعلن أن فى هذه الآيات دليل إعجاز القرآن ، أو أنها نوع من الإعجاز[(٢)] .

ورفض د. محمد عبد السلام كفافى وعبد اللّه الشريف الأقسام الثلاثة من إعجاز الغيب ، على أساس من حجة الخطابى . ولكنهما فى الوقت نفسه أعلنا أن هذا لا ينفى عندهم أن مثل هذا الإخبار من أسرار الإعجاز فى الآيات التى تحدثت به[(٣)] .

ويمكن أن نقول إن جميع أفراد هذه الفئة يرى الإنباء بالغيب نوعا خاصا من الإعجاز، وأنه ليس الإعجاز الذى اعتمد عليه التحدى القرآنى إلى المعارضة .

---

(١) لمحات ٥٥ - ٧ .
(٢) القرآن ٧٠ - ٥ .
(٣) فى علوم ١٤٠ - ١ .

(٤) القائلون بأحداث المستقبل والماضى

وكان منهم من قبل الإنباء بغيب الماضى والمستقبل ، وعدهما وجها أو وجهين من وجوه الإعجاز .

فعل ذلك أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٣٣٨ - ٤٠٣ / ٩٥٠ - ١٠١٣) الذى أعلن أن الإعجاز ثلاثة وجوه .

جعل الأول منها ما يتضمن القرآن من الإخبار عن الغيوب [المستقبلة] ، والصدق والإصابة فى كل ما قاله ، مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . واستشهد بعدد من الآيات ، التى وافق النظام فى الحكم بكثرتها . ثم أعلن أنه أراد التنبيه بالبعض على الكل[١] .

وأخص بالذكر منها قوله عز وجل : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾[٢] . فقد تردد تعليقه عليها فى الكتب بعده . قال : ففعل [اللّه] ذلك . وكان أبو بكر الصديق ، إذا أغزى جيوشه عرَّفهم ما وعدهم اللّه من إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، ويستيقنوا بالنجح .

وكان عمر بن الخطاب يفعل كذلك فى أيامه ، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه . فكان سعد بن أبى وقاص وغيره من أمراء الجيوش ، من جهته ، يذكر ذلك لأصحابه ، ويحرضهم به ، ويوثق لهم .

وكانوا يلقون الظفر فى متوجَّهاتهم ، حتى فُتح إلى آخر أيام عمر جميع ما كان من مملكة كسرى ، وكل ما كان يملكه ملوك فارس بين البحرين : من الفرات إلى جيحون ، وأزال ملك ملوك الفرس ، فلم يعد إلى اليوم ، ولا يعود أبدا ، إن شاء اللّه . وأزال ملك قيصر عن إرمينية والشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر . ولم يبق منها إلا ما حجز دونه بحر ، أو حال عنه جبل منيع ، أو أرض خشنة ، أو بادية غير مسلوكة[٣] .

---

(١) إعجاز ٣٣ - ٤ ، ٤٨ . الحمصى ٤٠٩ . البوطى ١٦٠ . الخطيب ٢٠٤ - ٥ . الملا ٢٧٨ ، ٣٠٥ . لاشين ٤٥٨ - ٩ . عبد القادر ٦٨ . البدرى ١٣٣ . قصاب ٣٢٣ .

(٢) سورة التوبة ٣٣ .

(٣) إعجاز ٣٣ - ٤ . القرطبى ١ / ٧٥ . لاشين ٤٥٨ - ٩ . عبد القادر ٦٨ .

وجعل الوجه الثانى ما حُكى فى القرآن ، من قصص الأولين وسِيَر المتقدمين ، حكاية من حضَرها وشَهِدها ، مع أن المعلوم من حال النبى أنه كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ، ولم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين . فأتى القرآن بجُمْل ما وقع من عظيمات الأمور ومهمات السِّير ، من حين خلق الله آدم إلى حين مبعث محمد[١] .

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم .

وإذ كان معروفا أن محمدا :

- لم يكن مُلابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار .
- ولا مترددا إلى التعلم منهم ،
- ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه .

ولا شك فى كل ذلك ، لأن من كان يتردد على التعليم لم يكن يخفى على الناس أمره، ولا يشتبه مذهبه[٢] ؛

إذ كان ذلك كذلك ، عُلم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى . ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذًا لارتاب المبطلون ﴾[٣] .

ويبين لنا هذا أن أخبار الماضين صارت عنده معجزة ، لأنها جاءت على لسان أمى لم يُعرَف عنه الاطلاع عليها . فلابد إذن فى هذا الوجه من اقتران هذا الإخبار بالأمية .

وروى السيوطى أن محمد بن سراقة (نحو ٤١٠ / ١٠٢٠) قال : اختلف أهل العلم فى وجه إعجاز القرآن . فذكروا فى ذلك وجوها كثيرة كلها حكمة وصواب . وشرع يسرد هذه الوجوه إلى أن قال :

- وقال آخرون : هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية .
- وقال آخرون : هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع[٤] .

---

(١) إعجاز ٣٤ ، ٤٩ . القرطبى ١ / ٧٤ . الحمصى ٤١٠ ، ٤١٨ . البوطى ١٦١ ، ٢٢٠ . الخطيب ٢٠٥ . عائشة ٨٢ . الملا ٢٧٨ ، ٣٠٥ . البدرى ١٣٦ . صالحة ٨١ .

(٢) إعجاز ٤٩ . البوطى ١٦١ . الملا ٢٧٩ .

(٣) سورة العنكبوت ٤٨ .

(٤) الإتقان ٢ / ١٤١ . الحمصى ٨٠ . صالحة ٨٠ .

وذهب القاضى عياض بن موسى اليحصبى (٤٧٦ - ٥٤٤ / ١٠٨٣ — ١١٤٩) إلى أن للإعجاز أربعة وجوه بيّنة لا نزاع فيها ولا مرية .

وجعل الوجه الثالث منها ما انطوى عليه القرآن من الإخبار بالمغيبات ، وما لم يكن ولم يقع ، فوُجد كما ورد على الوجه الذى أخبر القرآن به[1] .

وجعل الوجه الرابع ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الداثرة ، مما كان لا يعلم القصة الواحدة منه إلا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب ، الذى قطع عمره فى تعلم ذلك . فأورده القرآن على وجهه ، وأتى به على نصه . فاعترف العالم بصحته وصدقه ، وأن مثله لم ينله بتعليم ، إذ علموا أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسة[2] .

وكان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه ﷺ عن هذا . فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا .

ومع هذا لم يُحْكَ عن أحد من أهل الكتاب - على شدة عداوتهم له ، وحرصهم على تكذيبه ، وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم ، وتقريعهم بما انطوت عليه ، وكثرة سؤالهم وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم ، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم - أنه أنكر ما قال أو كذبه .

ومن باهت فى ذلك بعض المباهتة ، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة ، دُعِى إلى إقامة حجته وكشف دعوته . فقيل له : ﴿ قل : فأتوا بالتوراة ، فاتلوها إن كنتم من الصادقين . فمن افترى على اللّه الكذب من بعد ذلك ، فأولئك هم الظالمون ﴾[3] .

وأعلن أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسى (٤٨١ — ٥٤٢ / ١٠٨٨ — ١١٤٨) أن الناس اختلفوا فى إعجاز القرآن ، ثم ذكر أن :

---

(١) الشفا ٥١٨ — ٢١ ، ٧٣٦ . الاتقان ٢ / ١٤١ — ٢ . معترك ١ / ٢٣٩ . الخطيب ٣١٥ . البنورى ٨٧ . قمحاوى ٢٢ . شعبان ٣٢٧ . صالحة ٧٦ .

(٢) الشفا ٥٢٢ . الإتقان ٢ / ١٤٢ . معترك ١ / ٢٤٠ . الخطيب ٣١٦ . قمحاوى ٢٤ . شعبان ٣٢٧ . صالحة ٧٦ .

(٣) سورة آل عمران ٩٣ ، ٩٤ . الشفا ٥٢٢ - ٥ . معترك ١ / ٢٤١ .

- قوما قالوا : إن التحدى وقع بالكلام القديم ،

- وقوما قالوا : إن التحدى وقع بما فى كتاب اللّه من الأنباء الصادقة والغيوب المسرودة[١] . ويبدو أنه أراد بذلك أنباء أحداث الماضى والمستقبل ، فيكون ممن وافق الباقلانى ، وإن كان هناك حديث عن قوله التحدى دون الإعجاز .

وأردف ابن عطية يقول : هذان القولان إنما يرى العجز فيهما من قد تقررت الشريعة، ونبوة محمد ﷺ فى نفسه . وأما من هو فى ظلمة كفره فإنما يُتحدَّى فيما يبين له — بينه وبين نفسه - عجزُه عنه ، وأن البشر لا يأتى بمثله ، ويتحقق بمجيئه من قبل المتحدِّى[٢] .

ولا نجد جديدا عند من جاء بعد هؤلاء من المفسرين والباحثين الذين قبلوا الغيب بشقيه فى وجوه الإعجاز . وإنما نلاحظ أن منهم من أتى بذاك فى أقصر عبارة[٣] ، ومن رفض الاقتصار عليه محتجا بما قال الخطابى[٤] ، ومن أفاض دون إضافة فكرية ذات قيمة[٥] .

ويمكن أن أمثل لذلك بالمطاعن التى نقضها محمد الخضر حسين والتجاوزات التى اشتط فيها بعضهم فعدّ من الإنباء بالغيب أمورا لم يرض عنها . قال : ولا يدخل فى الإخبار بالمغيبات ما توهمه بعضهم من أن مصر تُفتح للعثمانيين ، فى عهد السلطان سليم سنة كذا ، أخذا من قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[٦] . إذ أن حروف (ولقد) توافق حروف (سليم) فى حساب الجُمَّل ، و(الذكر) يوافق حسابها تلك السنة ، فيكون المعنى : سليم كتبنا فى الزبور ، من بعد تلك السنة : أن الأرض - أى مصر - يرثها عبادى الصالحون ، وهم العثمانيون . فلا يؤخذ من القرآن إلا ما نزل للهداية ، وما حصل من فتح سليم لمصر فى السنة المذكورة كان مجرد مصادفة[٧] .

---

(١) المحرر ١ / ٥٩ . الخطيب ٣٢٠ .
(٢) المحرر ١ / ٥٩ . الخطيب ٣٢٠ .
(٣) الطبرسى ١ / ٦٢ . القرطبى ١ / ٧٤ - ٥ . القاسمى ١ / ٢٨٢ . المراغى ١١ / ١٠٦ . العانى ١٨٠ .
(٤) مفاتيح ٩٥/١٧ ، ١٩٥ . نهاية الإيجاز ٧ . الزملكانى ٥٥ ، ٦٠ . الجواب الصحيح ٧٤/٤ .
(٥) الفوائد ٢٤٨ - ٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ . معترك ١ / ٣٩ - ٤٢ . مدخل دراز ١٧٧ - ٩ . حميدة ٤٢ - ٤ . أبو زهرة ٣٣٩ - ٤٢ . الصابونى ١١٩ - ٢٤ .
(٦) سورة الأنبياء ١٠٥ .
(٧) بلاغة ٥٥ - ٦ .

وعنى مصطفى الدباغ بإثبات ما جاء في القرآن عن عاد وثمود وأبرهة الحبشى ، وتصحيح بعض ما حرف فى التوراة والإنجيل[١] .

(٥) القائلون بالمستقبل ونجوى السرائر

وقصر محمد وفا الأميرى حديثه على أحداث المستقبل ، ونجوى السرائر ، وأهمل قصص الأنبياء والصالحين . فجعل الفصل السادس من كتابه لكشف اللّه بالقرآن مكائد الكافرين ودسائس المنافقين[٢] ، والفصلين التاسع والسادس عشر لحديث القرآن عن أمور غيبية مستقبلية وتحققها[٣] ، وعن الحوادث الهامة التى ستمر على المسلمين[٤] . وقال عن النوع الأول : فكان هذا من أعظم ألوان إعجازه الذى خدم الدولة الإسلامية الفتية ، وخلصها من المخاطر والدسائس[٥] .

(٦) التقسيم الرباعى

وانفرد د. سامى عبد العزيز الكومى بتقسيم الغيب ، الذى عده السادس من وجوه الإعجاز ، إلى أربع شعب ، هى :

- غيب الماضى ، الذى أخبر فيه القرآن بقصص الرسل السابقين وأخبار الأمم السابقة، على لسان أمى ، كشف اللّه له حجاب الغيب .
- غيب الحاضر ، الذى أخبر فيه عما يقوله المشركون ، وما يفعلونه ، وما سيحدث لهم ، ويشرح ما يدور فى نفوسهم .
- غيب المستقبل ، الذى أخبر فيه عن أحداث ستقع فيما بعد .
- غيب الكون ، الذى أخبر فيه عن ظواهر اكتشفها العلم فيما بعد فاتفقت مكتشفات العلوم تماما مع آيات القرآن[٦] .

---

(١) وجوه ٧ - ١٠ . (٢) ألوان ٣١ - ٢ . (٣) نفسه ٣٧ - ٨ .
(٤) نفسه ٥٩ - ٦٢ . (٥) نفسه ٣١ . (٦) الإعجاز ٣٠ - ٢ ، ١٠٣ - ٤ .

ولا أعنى بذلك أن أحدا لم يتناول المكتشفات العلمية أو يربط بينها وبين الإنباء بالغيب ، بل فعله كثيرون كما يوضح كتاب الإعجاز العلمى غير أن د. الكومى كان صريحا وواضحا ومباشرا فى جعله أحد أقسام الغيب ، من بين من جعلوا إعجاز الغيب لا الإعجاز العلمى موضوع بحثهم .

(٧) التقسيم المضطرب

واضطرب التقسيم عند محمد متولى الشعراوى . فاستهل الفصل الذى عقده للغيب[١] . بأن حواجز الغيب التى مزقها القرآن ثلاثة : حاجز المكان ، وحاجز الزمن الماضى ، وحاجز المستقبل . ثم أضاف إليها حاجزا آخر ، هو حاجز النفس البشرية ، أى ما يخفيه الإنسان داخل نفسه[٢] .

ثم وضح ما أراد بكل حاجز ، فأبان أن حاجز الزمن الماضى يغلف ما حدث للأمم السابقة[٣] ، وأن حاجز المكان يحجب حديث النفس[٤] ، وأن حاجز المستقبل يحوى الأحداث المقبلة قريبة وبعيدة ، ومنها الكشوف العلمية[٥] . فصارت الحواجز ثلاثة لا أربعة .

وأعاد الحديث عن إيراد القرآن لتنبؤاته على سبيل القطع واليقين ، وتصحيحه لأخبار أهل الكتاب المحرفة ، وأعلن أن إيراده للحقائق العلمية يعد تحديا للأجيال إلى يومنا وإلى الأيام القادمة .

---

(١) معجزة ١ / ١٠٣ - ٢٧ . (٢) معجزة ١ / ١٠٣ . (٣) نفس الموضع .
(٤) معجزة ١ / ١٠٤ . (٥) معجزة ١ / ١٠٨ .

الفصل الثانى

الرافضون لكونه وجها للإعجاز

وكان منهم من رفض رفضا قاطعا أن يعد الإنباء بالغيب جملة وجها من وجوه الإعجاز :

فعل ذلك على بن أحمد المعروف بابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ / ٩٩٤ - ١٠٦٤) . فقد أورد رأى النظام أن إعجاز القرآن بالإنباء بالغيب وليس بالنظم . وأعقبه بأن سائر أهل الإسلام يقولون : بل كلا الأمرين معجز ، وهذا هو الحق الذى ما خالفه فهو ضلال .

ثم رفض عد الإنباء بالغيب وجها من وجوه الإعجاز ، معتمدا على ما قاله الخطابى ، قال : أكثر سور القرآن ليس فيها إخبار بغيب . فمن جعل المعجز الإخبار بالغيب كان مخالفا لما نص الله على أنه معجز من القرآن . فسقطت هذه الأقاويل الفاسدة[١] .

وقد وهم د. محمد عبد الهادى أبو ريدة من عبارة ابن حزم المبهمة فى التعبير عن رأى « سائر أهل الإسلام » فظنه من أنصار الإعجاز بالغيب[٢] .

ولست أدرى علام اعتمد محمد الصادق قمحاوى فى قوله عن ابن حزم : « ورأيه فى الإعجاز من ثلاثة وجوه : الإخبار بالغيب ، ولنظمه الذى لا يقدر عليه العباد ، ولأن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله[٣] » .

فالمعروف أنه قال بالصرفة ، وأعرض عن البحث فى وجه الإعجاز ، لأن مذهبه الظاهرى يجعله ممن يمتنعون عن تعليل أعمال الله وأوامره .

وتعرض فخر الدين الرازى لقضية الإخبار بالغيب فى كتاب « محصل أفكار المتقدمين» ، وذهب إلى أنها ليست مسلمة ، لأن الكهان قد يطلقون خبرا . فإذا صحَّ تباهَوا به ، وعدوه من معرفتهم بالغيب . وإذا لم يصح قالوا : سيأتى زمان يقع فيه ، ونحن لم نعين لكم ذلك الزمان[٤] .

كذلك رفض يحيى بن حمزة العلوى اليمنى (٦٦٩ ــ ٧٤٥ / ١٢٧٠ ــ ١٣٤٤) القول بكون الاشتمال على الأمور الغيبية وجه الإعجاز . واحتج بحجة الخطابى ، ثم أضاف إليها : إن هذا القول يكون أعظم عذرا للعرب فى عدم قدرتهم على معارضته .

---

(١) الفصل ٣ / ١٦ - ٧ .
(٢) إبراهيم ٣٢ .
(٣) شبهات ٩٩ .
(٤) ١٥٢ .

ولو كان ذلك صحيحا لكان من حقهم أن يقولوا : إنا متمكنون من معارضة القرآن . ولكنه اشتمل على مالا يمكننا معرفته من الأمور الغيبية . ثم أعلن : لما لم يقولوا ذلك دل على بطلان هذه المقالة(١) .

ورفضه نظام الدين الحسن بن محمد القمى النيسابورى (بعد ٨٥٠ / ١٤٤٦) الذى قطع بأن الأمر أمر أسلوبه ونظمه المؤثر فى القلوب تأثيرا لا يمكن إنكاره ، وقال : من فسر الإعجاز بأنه صرف الله البشر ... أو بكونه مشتملا على الإخبار بالغيوب ، وبما ينخرط فى سلك هذه الآراء ، فقد كذب ابن أخت خالته(٢) .

وذهب د. أحمد أحمد بدوى إلى أن التنبؤ بالغيب والحديث عن الماضين إن اتُّخذا دليلا على نبوة محمد ، لا يصلحان برهانا على إعجاز القرآن . واستند فى ذلك إلى حجة الخطابى . وذكر أن بعضهم استند فى رفض هذا الوجه إلى أن القرآن حين تحدى العرب، قالوا لرسول الله : إنك تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا. وادعوا أنه يؤلف القرآن ثم ينسبه إلى الله افترار عليه . فتحداهم أن يأتوا بمثله مفترى ﴿أم يقولون : افتراه قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾(٣) . وظن صاحب هذا القول أن القرآن عندما تحداهم أن يأتوا بسور مفتريات ، سمح لهم أن يأتوا بالقصص الكاذبة فى معارضة القرآن . ثم أعلن : إنه أعلن : إنه لا يرى الآية تشير إلى ذلك . فكيف تكون السور مثله ، وفى الوقت نفسه مفتريات ؟ وإنما يجاريهم القرآن فى دعواهم أنه افترى الكذب على الله ، فقال فى الرد عليهم : هاتوا كلاما كاذبا كهذا الذى أتيت به(٤) .

وأعلن محمد حنيف فقيهى أن العرب لم يذهلهم القرآن لأنه يخبر عن الغيب ، ولا لأنه يتحدث عن أخبار الماضين ، ولا .. ولا لما شاكل هذه كلها ، وإنما أذهلهم ببيانه . ولكنه قال بعد ذلك بمدة : إن ذلك كان رأيه ، أما الآن فإنه يرى غير ذلك(٥) .

ورد مناع القطان وجه الغيب ، وحكم عليه بالبطلان ، اعتمادا منه على حجة الخطابى(٦) .

---

(١) الطراز ٣ / ٣٩٠ ، ٣٩٨ . (٢) غرائب ١ / ٢٠٢ . (٣) سورة هود ١٣ .
(٤) من بلاغة ٤٩ ـ ٥١ . (٥) نظرية ١٩١ ـ ٢ . (٦) مباحث ٢٦٢ .

خاتمـــــــــة

تكشف لنا هذه الجولة أن القول بأن إنباء القـرآن بـالغيب أحـد وجـوه الإعجـاز وُلـد كاملا على يدى النظام ، إذ تحدث عن شعبه الثلاث : وقائع الماضى ، وأحداث المستقبل، وما تخفيه السرائر . ولم يضف إليها أحد شعبة أخرى إلا الكومى ، الذى جعـل الإعجـاز العلمى شعبة رابعة له . وكان بعض من كتبوا عن هذا الوجه قد وصلوا بين الظاهرتين .

وتكشف أن ما كشفه الخطابى من مفارقة بين هذا الوجه الذى لا يوجد إلا فى بعـض الآيات ، وبين عمومية آية التحدى فى سورة البقرة ، صار العماد الرئيسـى لدارسـى هـذا الوجه من الإعجاز ، على الرغم من عدم وضوح موقف الخطابى واختلاف الدارسين فـى توضيحه .

فصار سبب رفض كل من أبى أن يكون الإنباء عن الغيب أحد وجـوه الإعجـاز ، مـا عدا ابن حزم الذى كانت ظاهريته سبب رفضه ، وإن كان دعمها بقول الخطابى .

وصار سبب تردد فئة أخرى من الدارسين . فساق الخطابى إلى عـده نوعـا مـن أنـواع الإعجاز غير أنه ليس الإعجـاز الـذى استند إليـه التحـدى . وسـاق الزركشـى إلى عـده إعجازا جزئيا ، يوجد فى بعض الآيات وينحسر عن بعضها الآخر .

وأجبر من قبل الغيب وجها للإعجاز إلى التعامل معه .

ولذلك رأيت أن أصنف المتعاملين مع الغيب إلى سبع فئات ، تناولت كل واحدة منهـا على حدة .

وعلى الرغم من هذا التصنيف ، توجد ظواهر عمت ما تضمن مـن فئـات أو أغلبهـا . وأول هذه الظواهر أننا لم نجد أحدا يقول بالغيب وجها وحيدا للإعجاز ، وإنمـا عـده مـن قبله واحدا من وجوه متعددة .

وثانيها أن أحدا لم ينكر إنباء بعض الآيات القرآنية بالغيب . وإنما الاختلاف فـى عـده من وجوه الإعجاز .

وثالثها أمية النبي ﷺ التى أصر كل من كتب عن إعجاز القصص القرآنى على ذكرها لأنها دعامة هذا الإعجاز ، بل تجاوزته عند بعضهم إلى إعجاز أخبار المستقبل ، وهى غير ضرورية له .

ورابعها وجود عدد من الآيات رددها معظم من كتبوا إن لم يكن كلهم ، مثل آية انتصار الروم على الفرس ، وانهزام المشركين فى بدر ، وفتح مكة . ولا أعنى بذلك أن هذه الآيات بقيت هى هى عندهم ، بل كان الخلف يزيد فيها على السلف .

فإذا ألقينا نظرة تاريخية على الكتابة عن الغيب ، وجدنا أول من كتب عنه — بعد النظام — : الرمانى ، وهو متكلم معتزلى مثل سابقه ، ووجدناه اقتصر على الحديث عن المستقبل ، واكتفى بإعلام أن وقوع الأحداث متفقة مع إخبار القرآن دل على أن الآيات التى حملت هذه الأنباء من عند علام الغيب ، وبالاستشهاد بعدة آيات وردت فيها أخبار مستقبلية .

ثم جاء الخطابى — المحدِّث اللغوى — بملاحظته القيمة .

وعاد الباقلانى من الأشعرية إلى التوسع ، فعدّ كلا من غيب المستقبل وغيب الماضى وجها مستقلا من وجوه الإعجاز . وعنى فى أولهما بالآية ٣٣ من سورة التوبة ، التى بشرت بإظهار الله للإسلام على جميع الأديان ، وما كان لذلك من أثر فى حفزهم المسلمين ، واستبسال المقاتلين . وعنى فى الثانية عناية مفصلة لأول مرة بأمية النبى ﷺ التى جعلت حكايته لقصص الأولين وجها من الإعجاز .

ووجه القاضى عبد الجبار بن أحمد — المعتزلى — القسط الأكبر من جهوده إلى تخليص الغيب مما قد يختلط به من شوائب ، فيفسد أمره أو يغطى وجهه . ففرق بين غيب المستقبل والتنجيم والعرافة والكهانة والسحر ، وبين غيب الماضى والحدس .

وفرق بين التحدى والإعجاز ، فرأى أن الإعجاز يمكن أن يكون فى الغيب . أما التحدى فلا يمكن صرفه إلى بعض القرآن دون بعض ، وأنه كان وفق العرف العربى ، أى الفصاحة .

وخلص إلى أن القرآن لم يوجه إليه قدح إلا انعكس وصار منقبة ؛ وإلى أن الغيب

أعظم وجوه الإعجاز ، لأنه يشمل العرب والعجم ، ولا يحتاج إدراكه إلى معرفة باللغة العربية أو تبحر فيها أو إلى قسط مهما كان من التعلم .

وجعل الماوردى كل واحد من الشعب الثلاث وجها مستقلا للإعجاز . وعنى — مع إيجازه — بما وجه إلى كل وجه منها من اعتراض ، ورد عليه . فعاد إلى الحديث عن أمية محمد ﷺ والتفرقة بين الغيب القرآنى والحدس . وكان أول من نبه إلى أن بعض القصص القرآنى تلبية لطلب المشركين واليهود الذين بغوا تعجيزه وإعناته ، مما ينفى عنه سبق معرفته ؛ وأول من نبه إلى أن بعض ما كشفه القرآن من السرائر يعيب من فضحهم ويؤثمهم ، ولكنهم لم يحاولوا التنصل مما وصمهم به ، فدل ذلك على صدقه .

وفرضت ظاهرية ابن حزم عليه أن يرفض عد الغيب وجها من وجوه الإعجاز . كما رفض كل وجه إلا الصرفة .

وفطن الطوسى إلى أن العاقل لا يدلى بالقول القاطع الحاسم فى مثل أمور الغيب ، خشية ألا تتحقق . وإنما يتفوه بعبارات مبهمة تحتمل تأويلات شتى . فلما جاء بها القرآن قاطعة دل على أنها من عند علام الغيوب . وقد تناول من بعده هذه الفكرة كثيرا ، وبنوا عليها كلاما طويلا .

كذلك كان أول من نبه إلى أن آية التحدى فى سورة البقره إحدى آيات الإنباء بالغيب ، ومن ثم إحدى أدلة الإعجاز . وقد تابعه فى ذلك معظم المفسرين والكاتبين فى الإعجاز والمتحدثين عن هذه الآية ولو حديثا عارضا .

وبنى الراغب الأصفهانى على فكرة القاضى عبد الجبار أن إعجاز الغيب يمكن أن يدركه أى إنسان ... أن هذا الإعجاز لذاته لا بكونه فى القرآن ، وأنه لا يحتاج إلى أن يصاغ فى نظم رفيع ، لينال شرف الحكم عليه بالإعجاز . وتابعه الآلوسى فى ذاك .

وأضاف الزمخشرى فكرة أنه لو قام أحد من الكفار ومعارضى الإسلام بمعارضة القرآن، لتناقل الناس أخبارها ، لأن كتمانها محال ، وبخاصة أن عدد خصوم الإسلام كان كثيرا . وقد ردد العلماء بعده هذا القول .

وأتى ابن عطية بفكرة أن المؤمن هو الذى يصدق الإعجاز بالغيب ، وتابعه فيها بعضهم ، على غرابتها وتناقضها مع ما يوحى به قول عبد الجبار .

وعاد القاضى عياض إلى الحديث عن القصص التى طلبها اليهود . فذكر أنها لم يعرفها إلا أفراد من أحبارهم . وعلى الرغم من ذلك ، لبى الرسول طلبهم ، ولم يستطع أحد منهم أن يكذبه ، وإن حاول ذلك بعضهم . وتابعه السيوطى والآلوسى .

وانفرد العلوى اليمنى ، الذى رفض إعجاز الغيب ، بأنه لو صح إعجاز الغيب لكان عذرا قويا لمن عجز عن معارضة القرآن من العرب .

وجاهد الإيجى ـ والشريف الجرجانى والآلوسى تبعا له ـ فى إيراد الاعتراضات أو ما سماه الشُّبه على إعجاز الغيب ، وإبطالها .

وانفرد محمد رشيد رضا بوضع آيات الإنباء بأحداث المستقبل فى قسم غيب الحاضر . وأعتقد أنه ذهب فى ذلك إلى أنها تنبؤات حاضرة بأحداث مستقبلة . وكان أكثر وضوحا وتوفيقا فى وضعه أحداث ما سمته التوراة (التكوين) أى خلق العالم فى غيب الماضى ، وأحداث يوم القيامة فى غيب المستقبل . وعرّف الغيب بأنه ما غاب علمه عن الناس . ولكن تعريف د. موسى شاهين لاشين بأن الغيب مالا يعلمه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ، ولا يعقل أنه علمه عن غيره من الخلق ، أكثر دقة ووضوحا .

ويحمد لمحمد الخضر حسين شجبه للتجاوزات فى هذا الباب ، وتحديده بما يقصد إلى الهداية فقط .

وعقد الزرقانى فصلا طويلا خصصه للغيب ، عنى فيه بالإكثار من الأمثلة وتحليلها . وذهب فيه إلى أن الغيب يتضمن معجزات كثيرة ، وإلى أن الكشوف العلمية على صلة به .

ولما كان قد ذهب ـ هو وغيره منذ أول عالم تكلم عن إعجاز المستقبل إلى أن سر إعجاز الغيب أنه وقع كما حدّث القرآن ، فإنه تتبع ما يصدق كل نوع من أنواع الغيب. فأعلن أنه :

ـ إن أخبر عن غيب الماضى صدقه ما شهد به التاريخ .

- وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء ، وما يجدّ فى العالم من تجارب وعلوم .

- وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالى ، وما تجىء به الأيام .

كذلك عقد د. حسن ضياء الدين عتر فصلا طويلا ، اعتمد فيه على القاضى عبد الجبار والآلوسى والزرقانى ودراز . وأتى بفكرة أن إدراك إعجاز الغيب لا يحتاج إلى ذوق بلاغى .

وماثل خلف اللّه الزرقانى فى الإطناب فى الحديث عن الغيب والعناية بتحليل الأمثلة ، رجع فيه إلى عدد كبير ممن كتبوا فى هذا الوجه من الإعجاز . وأكد أن الآية التى تخلو من الغيب لا تخلو من جملة الإعجاز . وأن كل آية فيها ما يناسبها من وجوه الإعجاز ، وأن الغيب منه ما وقع فى عصر الرسول ، ومنه ما يقع بعده ، فإعجازه قائم إلى اليوم . ورد على من اتهمه بالسحر متسائلا لماذا إذن لا يأتون بسحر صادق مثله ؟ وخلص إلى أن القرآن لا يذكر إلا ما يتصل بالرسالة والدعوة وتكميل الإنسان .

واختلف موقف الرازى فى كتبه المختلفة . فأعلن فى تفسيره أن آية التحدى تدل على الإنباء بالغيب ، وتكشف بذلك عن إعجازه . ورفض فى « المحصل » هذا الوجه من الإعجاز .

المراجع والمصادر

- الآلوسى ، شهاب الدين محمود بن عبد الله : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - بيروت - دار الفكر - ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
- إسماعيل ، د. شعبان محمد : المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية — مصر — دار الأنصار - ط١ - ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .
- الأشعرى ، على بن إسماعيل : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - استانبول - مطبعة الدولة - ١٩٢٩ .
- ابن أبى الإصبع ، عبد العظيم بن عبد الواحد : بديع القرآن - القاهرة - دار نهضة مصر - ط٢ .
- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - مصر - مطبعة المدنى .
- ابن جزى الغرناطى ، محمد بن أحمد : التسهيل لعلوم التنزيل - مصر - مطبعة حسان .
- ابن الجوزى ، عبد الرحمن بن على : زاد المسير فى علم التفسير — المكتب الإسلامى للطباعة والنشر .
- ابن حزم ، على بن أحمد : الفصل فى الملل والأهواء والنحل - مصر - ١٣١٧ -١٣٢٠ .
- ابن عطية ، عبد الحق : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - طبع على نفقة سمو أمير دولة قطر .
- ابن كثير ، إسماعيل : تفسير القرآن العظيم - لبنان — بيروت — دار المعرفة — ١٣٨٨ / ١٩٦٩ .
- ابن النقيب ، محمد بن سليمان : مقدمة تفسيره — مكتبة الخانجى — ط١ — ١٤١٥ / ١٩٩٥ .
- أبو حيان ، محمد بن يوسف : البحر المحيط - مصر - مطبعة السعادة - ط١ - ١٣٢٨ .
- أبو الخشب ، إبراهيم على : القرآن الكريم : دراسة - مصر - دار الثقافة العربية للطباعة .
- أبو ريدة ، د. محمد عبد الهادى : إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية . القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .
- أبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى القرآن - مصر - دار غريب للطباعة - ١٩٧٧ .
- أبو زيد ، أحمد : المنحى الاعتزالى فى البيان وإعجاز القرآن - المغرب - الرباط — مطبعة

المعارف الجديدة ـ ط١ ـ ١٩٨٦ .
- أبو زيد ، د. نصر حامد : مفهوم النص ـ مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٩٠ .
- أبو السعود ، محمد بن محمد العمادى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ لبنان ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى .
- أبو على ، محمد بركات حمدى : فى إعجاز القرآن الكريم ـ المكتبة الدولية ـ مؤسسة الخافقين ـ ط١ ـ ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .
- الأسداباوى ، عبد الجبار بن أحمد :
: تنزيه القرآن عن المطاعن ـ بيروت ـ دار النهضة الحديثة .
: المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ـ مصر ـ مطبعة دار الكتب ـ ط١ ـ ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .
- الأميرى ، محمد وفا : ألوان من الإعجاز القرآنى ـ حلب العبارة ـ مطبعة الشرق ـ ط١ ـ رمضان ١٤٠١ .
- الإيجى ، عبد الرحمن بن أحمد : المواقف فى علم الكلام ـ بيروت ـ عالم الكتب .
- الباقلانى ، محمد بن الطيب : إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار المعارف ـ ط٤ ـ ١٩٧٧ .
- البدرى ، د. على : حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار الطباعة المحمدية ـ ط١ ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .
- بدوى ، د. أحمد أحمد : من بلاغة القرآن ـ مصر ـ مكتبة نهضة مصر ـ ط٣ .
- البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر : الفرق بين الفرق ـ لبنان ـ بيروت ـ دار المعرفة .
- البلخى : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ـ تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٤ .
- البنورى ، محمد يوسف : يتيمة البيان فى شىء من علوم القرآن ـ باكستان ـ كراتشى ـ ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .
- البوطى ، د. محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن ـ مكتبة الفارابى ـ ط٣ ـ شعبان ١٣٩٢ / أيلول ١٩٧٢ .
- البيضاوى ، عبد الله بن عمر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ مصر ـ مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ ط٢ ـ ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .
- حسين ، عبد القادر : القرآن : إعجازه وبلاغته ـ مصر ـ مطبعة الأمانة ـ ١٩٧٥ .
- حسين ، محمد الخضر : بلاغة القرآن ـ طبع ونشر على الرضا التونسى ـ ١٣٩١ / ١٩٧١ .
- الحمصى ، نعيم : فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد

وتعليق ـ سورية ـ مؤسسة الرسالة ـ ط٢ ـ ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

ـ حميدة ، عبد الحسيب طه : مع القرآن فى آدابه ومعاملاته ـ مصر ـ دار المعارف ـ ط٦ ـ ١٣٨٩ / ١٩٧٠ .

ـ حويش ، عمر الملا : تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها فى البلاغة العربية ـ بغداد ـ مطبعة الأمة ـ ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .

ـ الخطيب عبد الكريم : الإعجاز فى دراسات السابقين ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ط٢ ـ ١٩٧٥ / ١٣٩٥ .

ـ خلف الله ، أحمد عز الدين عبد الله : القرآن يتحدى ـ مصر ـ مطبعة السعادة ـ ط١ ـ ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

ـ الخياط ، عبد الرحيم بن محمد : الانتصار والرد على ابن الروندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم ـ بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ـ ١٩٥٧ .

ـ الدباغ ، مصطفى : وجوه من الإعجاز القرآنى ـ الأردن ـ الزرقا ـ مكتبة المنار ـ ط١ ـ ١٩٧٢ .

ـ دراز ، د. محمد عبد الله : مدخل إلى القرآن الكريم ـ الكويت ـ دار القلم ـ ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

: النبأ العظيم ـ مصر ـ مطبعة السعادة ـ ١٣٨٩ / ١٩٦٩ .

ـ دروزة ، محمد عزة : القرآن والمبشرون ـ المكتب الإسلامى ـ ط١ ـ ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .

ـ الرازى ، محمد بن عمر فخر الدين : التفسير الكبير ـ طهران ـ دار الكتب العلمية ـ ط٢ .

: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ـ مصر ـ مكتبة الكليات الأزهرية .

: نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ـ مصر ـ مطبعة الآداب والمؤيد ـ ١٣١٧ .

ـ الراغب الأصبهانى ، الحسين بن محمد : مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة ـ الكويت ـ دار الدعوة ـ ط١ ـ ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .

ـ الرافعى ، مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ القاهرة ـ مطبعة الاستقامة ـ ط٨ ـ ١٣٨٤ / ١٩٦٥ .

ـ رضا ، محمد رشيد : تفسير المنار ـ بيروت ـ دار المعرفة .

ـ الرمانى والخطابى والجرجانى : ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار المعارف .

ـ زرزور ، د. عدنان محمد : القرآن ونصوصه ـ سورية ـ مطبعة خالد بن الوليد ١٣٩٩ ـ ١٤٠٠ / ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ .

ـ الزركشي ، محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن ـ ط٣ ـ ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .
ـ الزمخشري ، محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ دار الفكر ـ ط١ ـ ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .
ـ الزملكاني ، عبد الواحد بن عبد الكريم : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ بغداد — مطبعة العاني ـ ط١ ـ ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .
ـ السلامي ، عمر : الإعجاز الفني في القرآن ـ تونس ـ طبع مصنع الكتاب ـ ماي ١٩٨٠ .
ـ سلطان ، منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة — مصر — الإسكندرية ، مطبعة الكاتب المصري ـ ١٩٧٦ .
ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر :
: الإتقان في علوم القرآن ـ مصر ـ المطبعة الموسوية ـ ١٢٨٧ .
: معترك الأقران في إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار الثقافة العربية ـ ١٩٦٩ .
ـ الشافعي الملطي ، محمد بن أحمد : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع — مكتبة المثنى ببغداد والمعارف ببيروت — ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .
ـ شاهين ، د. موسى لاشين : اللآلئ الحسان في علوم القرآن — مصر — مطبعة الفجر الجديد ـ ١٩٨٢ .
ـ شحاتة ، د. عبد الله : علوم القرآن والتفسير ـ مصر ـ دار العلوم للطباعة ـ ١٩٨٠ .
ـ شرف الدين ، د. صالحة عبد الحكيم : القرآن الحكيم : إعجازه وبلاغته وعلومه — الكويت ـ مطابع كويت تايمز ـ رجب ١٤٠٤ / أبريل ١٩٨٤ .
ـ الشريف الجرجاني ، علي بن محمد : شرح المواقف ـ مصر ـ مطبعة السعادة — ١٣٢٥ / ١٩٠٧ .
ـ الشعراوي ، محمد متولي : معجزة القرآن ـ مصر ـ كتاب اليوم ـ دار أخبار اليوم — ط١ ـ ١٩٧٧ .
ـ الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ـ بيروت — دار المعرفة — ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .
ـ الشوكاني ، محمد بن علي : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ـ دار الفكر ـ ط٣ ـ ١٩٧٣ / ١٣٩٣ .
ـ الصابوني ، محمد علي : التبيان في علوم القرآن ـ مكتبة الغزالي بدمشق ومناهل العرفان ببيروت ـ ط٢ ـ ١٤٠١ / ١٩٨١ .
ـ الصباغ ، محمد : لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ـ بيروت ـ المكتب الإسلامي

- ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .
- الصواف ، محمد محمود : القرآن - مؤسسة الرسالة - ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .
- الطبرسى ، الفضل بن الحسن : مجمع البيان فى تفسير القرآن - بيروت - دار إحياء التراث العربى .
- الطوسى ، محمد بن الحسن : تفسير التبيان - العراق - النجف الأشرف - مطبعة النعمان - ١٣٨٥ / ١٩٦٥ .
- العانى ، عبد القهار داود : دراسات فى علوم القرآن - بغداد - مطبعة المعارف - ط١ - ١٩٧٢ .
- عبد الرحمن ، د. عائشة : الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق - مصر - دار المعارف - ١٣٩١ - ١٩٧١ .
- عبده ، محمد : رسالة التوحيد - بيروت - ط٢ - ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .
- عتر ، د. حسن ضياء الدين : بينات المعجزة الخالدة - سورية - حلب - دار النصر - ط١ - ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .
- عرجون ، محمد الصادق : القرآن العظيم : هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين - مصر دار الاتحاد العربى - ١٣٨٦/ ١٩٦٦ .
- عرفة . محمد أحمد : نقض مطاعن فى القرآن الكريم - مصر - مطبعة المنار - ط ١ - ١٣٥١ .
- العلوى اليمنى ، يحيى بن حمزة : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - مصر - مطبعة المقتطف - ١٣٢٢ / ١٩١٤ .
- فقيهى ، د - محمد حنيف : نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر عن كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز - صيدا - بيروت - المكتبة العصرية - ط ٢ - ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .
- القاسمى ، محمد جمال الدين : محاسن التأويل - مصر - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى وشركاه .
- القرطبى ، محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن - مصر - مطبعة دار الكتب .
- قصاب ، د - وليد : التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى - قطر - الدوحة - دار الثقافة - ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .
- القطان ، مناع : مباحث فى علوم القرآن - بيروت - مؤسسة الرسالة - ط ٤ - ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

- قمحاوى ، محمد الصادق : شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها ـ مصر ـ دار الأنوار ـ ط١ ـ ١٩٧٨ .
- الكرمانى ، محمود بن حمزة : أسرار التكرار فى القرآن ـ مصر ـ دار الاعتصام ـ ط٣ ـ ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
- كفافى ، د . محمد عبد السلام وعبد الله الشريف : فى علوم القرآن : دراسات ومحاضرات ـ بيروت ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٨١ .
- الكومى ، د . سامى عبد العزيز : الإعجاز القرآنى فى مجال الإعلام ـ مصر ـ مطبعة السعادة ـ ط ١ ـ ١٤١١ / ١٩٩٠ .
- لاشين ، د . عبد الفتاح : بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار وأثره فى الدراسات البلاغية ـ القاهرة ـ مطبعة دار القرآن ـ ١٩٧٨ .
- الماوردى ، على بن محمد : أعلام النبوة ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ط ١ ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .
- المراغى ، أحمد مصطفى : تفسيره ـ مصر ـ مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ ط ٣ ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٤ .
- النسفى ، عبد الله بن أحمد : تفسيره ـ مصر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه .
- النيسابورى القمى ، الحسين بن محمد : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ مصر ـ مصطفى البابى الحلبى وأولاده .

اليحصبى ، عياض بن موسى : الشفابتعريف حقوق المصطفى ـ سورية ـ دمشق ـ دار الوفا .

محتويات الجزء الأول

محتويات الجزء الثانى

رقم الإيداع : ١٣١٤٢ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 977 - 11 - 1362 - 3

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه